محمود درويش



ذاكرة للنسيان

الطبعة السادسة



دار العودة - بيروت

ذاكرة للنسيان

صمم الغلاف : الفنان نبيل قدوح

محمود درويش

ذاكرة للنسيان

دار العودة - بيروت

الطبعة السادسة
١٩٩٤

يطلب من دار العودة ـ بيروت
كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
تلفون: ٨١٨٤٠٥ ـ ٨١٨٤٠٦
ص. ب: ١٤٦٢٨٤ / برقياً: العودة

من المنام يخرج منامٌ آخر: هل أنتَ في خير، أعني هل أنتَ حيّ؟

- كيف عرفتِ أنني كنتُ أضع الآن رأسي على ركبتيك وأنام؟

- لأنكَ أيقظْتني حين تحرّكْتَ في بطني. أدركتُ أني تابوتك. هل أنتَ حيّ؟ هل تسمعني جيداً؟

- هل يحدث ذلك كثيراً: أن يوقظني من المنام منام آخر هو تفسيرُ المنام؟

- ها هو ذا يحدث لي ولك.. هل أنتَ حيّ؟

- تقريباً.

- وهل أصابتك الشياطين بسوء؟

- لا أعرف، ولكنّ في الوقت متسعاً للموت.

- لا تَمُتْ تماماً.

- سأحاول.

- لا تمت أبداً.

- سأحاول.

- قل لي: متى حدث ذلك؟ أعني متى التقينا، متى افترقنا؟

- منذ ثلاثة عشر عاماً.

ـ هل التقينا كثيراً؟

ـ مرتين: مرةً تحت المطر، ومرةً تحت المطر، وفي المرة الثالثة لم نلتقِ. سافرتُ. ونسيتُكِ. وقبل قليل تذكرت. تذكرتُ أني نسيتُكِ. كنتُ أحلم.

ـ وهذا ما يحدث لي.. كنتُ أحلم. ولقد حصلتُ على رقم هاتفك من صديقة سويدية قابلتك في بيروت. أتمنى لك ليلة سعيدة. لا تنس أن لا تموت. ما زلتُ أريدك. وعندما تحيا، ثانية، أريدك أن تكلمني. يا للزمن.. ثلاثة عشر عاماً. لا. لقد حدث ذلك الليلة. أتمنى لك ليلة سعيدة...

الساعة الثالثة. فجرٌ محمولٌ على النار. كابوس يأتي من البحر. دُيُوكٌ معدنية. دخان. حديد يُعدُّ وليمة الحديد السيِّد. وفجر يندلع في الحواس كُلّها قبل أن يظهر. وهدير يطردني من السرير ويرميني في هذا الممر الضيق. ولا أريد شيئاً، لا أتمنى شيئاً. ولا أقدر على إدارة أعضائي في هذا الاضطراب الشامل. لا وقت للحيطة، ولا وقت للوقت. لو أعرف فقط، لو أعرف كيف أنظم زحام هذا الموت المنصبّ، لو أعرف كيف أحرِّرُ الصراخ المحتقن في جَسَدٍ لم يعد جسدي من فرط ما حاول أن ينجو في تَتَبُّع فوضى القذائف. كفى.. كفى ـ همستُ لأعرف إن كان في وسعي أن أفعل شيئاً يدلني عليّ.. ويشير إلى مكان الهاوية المفتوحة من جهات ست. لا أستطيع أن أستسلم لهذا القدر ولا أستطيع أن أقاومه. حديد يعوي فينبح له حديد آخر. حُمَّى المعادن هي نشيد هذا الفجر..

لو استراح هذا الجحيم خمس دقائق. وليكن من بعد ما هو بعد. خمس دقائق. أكاد أقول: خمس دقائق فقط أعدّ خلالها عُدّتي الوحيدة ثم

أتدبر موتي أو حياتي. خمس دقائق هل تكفي؟ نعم.. تكفي لأتسرّب من هذا الممر الضيّق المفتوح على غرفة النوم، المفتوح على غرفة المكتبة، والمفتوح على حمام لا ماء فيه، والمفتوح على المطبخ الذي أتحفز لدخوله منذ ساعة ولا أستطيع.. لا أستطيع أبداً.

نمتُ قبل ساعتين. وضعتُ قِطْعَتَيْ قُطْنٍ في أُذْنيّ، ونمتُ بعدما استمعتُ إلى نشرة الأخبار الأخيرة. لم تقل إني ميت. معنى ذلك أنني حيّ. تفقدْتُ أعضاء جسمي فوجدتها كاملة: عشر أصابع تحت. عشر أصابع فوق. عينان. أذنان. أنف طويل. أصبع في الوسط. وأما القلْب فإنه لا يُرى. ولا أجد ما يشير إليه سوى قدرتي الخارقة على إحصاء أعضائي، ومسدس ملقى على أحد رفوف المكتبة.. مُسدس أنيق، نظيف، لامع، وصغير الحجم بلا رصاص. أهدوني مع المسدس علبة رصاص لا أعرف أين خبأتها منذ عامين خوفاً من حماقة، خوفاً من فورة غضب طائشة، خوفاً من رصاصة طائشة. إذن، أنا حيّ، وبتعبير أدق: أنا موجود.

لا أحد يستمع إلى الرجاء المرفوع على الدخان: أريد خمس دقائق، لأتمكن من وضع هذا الفجر، أو حصتي منه، على قدميه، ومن التأهب للدخول في هذا اليوم المولود من عويل. هل نحن في آب؟ نعم. نحن في آب. وتحولت الحرب إلى حصار. أبحث في الراديو، المتحول إلى يد ثالثة، عما يحدث الساعة فلا أجد شاهداً ولا خبراً، فالراديو نائم.

لم أعد أتساءل متى يتوقف عواء البحر الفولاذي. أسكن على الطابق الثامن في بناية تغري أي صيّاد بالإصابة، فما بالك بأسطول حربي يحوِّل البحر إلى أحد مصادر جهنم؟ واجهة البناية الشمالية كانت تُمتِّع

سكانها بمشهدٍ ما لسقف البحر المتجعِّد، لأنها واجهة من زجاج، والآن انقلبت إلى عراء المصرع. لماذا سكنتُ هنا؟ ما هذا السؤال الأحمق! فمنذ عشر سنين وأنا أسكن هنا، ولا أشكو من فضيحة الزجاج.

ولكن، كيف أَصلُ إلى المطبخ؟

أريد رائحة القهوة. لا أريد غير رائحة القهوة. ولا أريد من الأيام كلها غير رائحة القهوة. رائحة القهوة لأتماسك، لأقف على قدميّ، لأتحول من زاحف إلى كائن، لأوقف حصتي من هذا الفجر على قدميه. لنمضي معاً، أنا وهذا النهار، إلى الشارع بحثاً عن مكان آخر.

كيف أذيع رائحة القهوة في خلاياي، وقذائفُ البحر تنقضُّ على واجهة المطبخ المطل على البحر لتنشر رائحة البارود ومذاق العدم؟ صرت أقيس المسافة الزمنية بين قذيفتين. ثانية واحدة.. ثانية واحدة أقصر من المسافة بين الزفير والشهيق، أقصر من المسافة بين دقّتيْ قلب.. ثانية واحدة لا تكفي لأَن أقف أمام البوتاغاز الملاصق لواجهة الزجاج المطلة على البحر. ثانية واحدة لا تكفي لأن أفتح زجاجة الماء، ثانية واحدة لا تكفي لأَن أصبَّ الماء في الغلاية. ثانية واحدة لا تكفي لإشعال عود الثقاب. ولكن ثانية واحدة تكفي لأَن أحترق...

أقفلت مفتاح الراديو. لم أتساءل إن كان جدار الممر الضيّق يقيني فعلاً مطر الصواريخ. ما يعنيني هو أن ثمة جداراً يحجب الهواء المنصهر إلى معدن يُصيب اللحم البشري، بشكل مباشر، أو يتشظّى، أو يخنق. وفي وسع ستارة داكنة ـ في مثل هذه الحالات ـ أن توفِّر غطاء الأَمان الوهميّ. فالموت هو أن ترى الموت.

أريد رائحة القهوة. أريد خمس دقائق.. أريد هدنة لمدة خمس دقائق من أجل القهوة. لم يعد لي من مطلب شخصي غير إعداد فنجان القهوة. بهذا الهوس حدّدت مهمتي وهدفي. توثبت حواسي كلُّها في نداء واحد واشرأبّت عطشى نحو غاية واحدة: القهوة...

والقهوة، لمن أدمنها مثلي هي مفتاحُ النهار.

والقهوة، لمن يعرفها مثلي، هي أن تصنعها بيديك، لا أن تأتيك على طبق، لأن حامل الطبق هو حامل الكلام، والقهوة الأولى يفسدها الكلام الأول لأنها عذراء الصباح الصامت. الفجرُ، أعني فجري، نقيضُ الكلام. ورائحة القهوة تتشرّب الأصوات، ولو كانت تحيةً مثل «صباح الخير»، وتفسد...

لذا، فإن القهوة هي هذا الصمتُ الصباحي، الباكر، المتأني، والوحيد الذي تقف فيه، وحدك، مع ماء تختاره بكسل وعزلة في سلام مبتكر مع النفس والأشياء، وتسكبه على مهل وعلى مهل في إناء نحاسيّ صغير داكن وسريّ اللمعان، أصفر مائل إلى البنّي، ثم تضعه على نار خفيفة.. آه لو كانت نار الحطب...

إبتعدْ قليلاً عن النار الخفيفة، لتطلّ على شارع ينهض للبحث عن خبزه، منذ تورط القردُ بالنزول عن الشجرة وبالسير على قدمين، شارع محمول على عربات الخضار والفواكه وأصوات الباعة المتميزة بركاكة المدائح وتحويل السلعة إلى نعت للسعر، واستنشق هواء قادماً من برودة الليل، ثم عُدْ إلى النار الخفيفة ـ آه لو كانت نار الحطب ـ وراقب بمودة وتؤدة علاقة العنصرين: النار التي تتلوّن بالأخضر والأزرق، والماء الذي يتجعّد ويتنفّسُ حبيبات صغيرة بيضاء تتحوّل إلى جلد ناعم، ثم تكبر..

تكبر على مهل لتنتفخ فقاعـاتٍ تتسع وتتسـع بوتيـرة أسرع وتنكسـر، تنتفخ وتنكسـر عطشى لالتهـام ملعقتين من السُكّر الخشن الـذي ما إن يـداخلهـا حتى تهدأ بعد فحيح شحيح، لتعود بعد هنيهة إلى صراخ الدوائر المشـرئبة إلى مادة أخرى هي البُنّ الصارخ، ديكاً من الرائحة والذكورة الشرقية. . .

أبعد الإناء عن النـار الخفيفة لتجـري حوار اليـد الطاهـرة من رائحة التبـغ والحبر مـع أولى إبداعـاتها، مـع إبداع أول سيحـدِّد لك، منـذ هذه الهنيهة، مذاق نهارك وقوس حظّك. سيحدّد لك إن كان عليك أن تعمل أم تتجنب العلاقة مـع أحد طيلة هـذا اليوم. فـإن ما سينتـج عن هذه الحـركة الأولى وعن إيقاعها وعما يحركها من عالم النوم الناهض من اليوم السابق، وعما يكشف من غموض نفسك، سيكون هوية يومك الجديد.

لأن القهوة، فنجان القهـوة الأول، هي مرآة اليـد. واليدُ التي تصنـع القهوة تُشيع نوعية النفس التي تحركها. وهكذا، فالقهوة هي القراءةُ العلنية لكتاب النفس المفتوح. . والساحرة الكاشفة لما يحمله النهار من أسرار.

مـا زال الفجر الـرصـاصيّ يتقـدم من جهـة البحـر على أصـوات لم أعرفها من قبل. البحرُ برمته محْشُوٌّ في قذائف طائشة. البحـرُ يبدل طبيعتـه البحـرية ويتمعـدن. أَلِلْمَوتِ كُـلُّ هذه الأَسمـاء؟ قلنـا: سنخـرج. فلمـاذا ينصب هذا المطر الأَحمـر ـ الأسود ـ الـرمادي على من سيخـرج وعلى من سيبقى من بشر وشجر وحجر؟ قلنا: سنخرج. قالوا: من البحر. قلنـا: من البحر. فلماذا يسلحون الموج والزبد بهذه المدافـع؟ ألكي نعجِّل الخـطى نحـو البحر؟ عليهم أن يفكـوا الحصـار عن البحـر أولاً. . عليهم أن يخلوا الطريق الأخير لخيط دمنا الأخير. وما دام الأمر كذلك، وهو كذلك. . فلن نخرج، إذن، سأعدُّ القهوة. . .

صحت عصافيرُ الجيران في السادسة صباحاً. تابعت تقاليد الغناء المحايد منذ وجدت نفسها، وحيدة، مع بدايات الضوء. لمن تغني في زحام هذه الصواريخ؟ تغنّي لتشفي طبيعتها من ليل سابق، تُغَنِّي لها لا لنا. هل كنا نعرف ذلك فيما مضى؟ لقد شقّت الطيور فضاءها الخاص في دخان المدينة المحترقة. كانت سهام الصوت المتعرجة تلتفُّ على القنابل وتشير إلى أرض سالمة في الفضاء. للقاتل أن يقتل. للمقاتل أن يقاتل. وللعصفور أن يُغنِّي. ولكنني أكفُّ عن طلب الكناية، أكفُّ تماماً عن التأويل، لأن من طبيعة الحروب أن تُحقِّر الرموز، وتعود بعلاقات البشر والمكان والعناصر والوقت إلى خاماتها الأولى، لنفرح بماء يتدفق من ماسورة مكسورة على طريق، لأن الماء هنا يتقدم منّا معجزة.

من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ للماء لون يتفتّح في انفتاح العطش. للماء لون أصوات العصافير، الدوري بخاصة، العصافير التي لا تكترث بهذه الحرب القادمة من البحر ما دام فضاؤها سالماً. وللماء طعم الماء، ورائحةٌ هي رائحة الهواء القادم، بعد الظهيرة، من حقل يتموج بسنابل القمح الممتلئة، في امتدادٍ متقطِّع الضوء كبُقع الضوء المخطوفة التي يتركها وراءه تَوَتُّرُ جناح الدوري الصغير وهو يطير طيراناً واطئاً على حقل. وليس كل ما يطير طائرة. ولعلّ أسوأ الكلمات العربية هي أن الطائرة تأنيث «الطائر». الطيور تواصل غناءها وتثبِّتُ أصواتها وسط هدير المدافع البحرية. ومن قال إن الماء لا طعم له ولا لون ولا رائحة. ومن قال إن هذه الطائرة هي تأنيث هذا الطائر؟

ولكن العصافير تصمت فجأة. تكفُّ عن الكلام وعن التحليق الروتيني في هواء الفجر منذ هَبَّت عاصفةُ الحديد الطائر. أَيِنْ هديرها

الفولاذي سكتت، أم من تشابُهٍ غير متعـادل في الشكل والاسم: جنـاحان من حديد وفضّة في مقابـل جناحين من ريش. حيـزوم من حديـد وكهربـاء في مقابل منقار من نشيد. حمولة من صواريخ في مقابل حبة قمح وقشـة. توقفت العصافير عن الغناء، واكترثت بالحـرب، لأن أرض سمائهـا لم تعد سالمة...

السّماء تنخفض، كأنها سقف إسمنتي يقع. البحر يتحوّلُ إلى يـابسة ويقتـرب. السماء والبحـر من مادة واحـدة. البحـر والسمـاء يضيقـان علي الخناق. أدرتُ مفتاح الراديو لأعرف أخبار السماء. لم أسمع شيئـاً. تجمد الوقت. جلس عليّ ليخنقني. مرّت الـطائرات من بين أصـابعي. اخترقت رئتي. كيف أصل إلى رائحة القهوة. كيف أموت يابساً بـلا رائحة القهـوة. لا أريد.. لا أريد.. فأين إرادتي؟

وَقَفَتْ هنـاك، على الطرف الثـاني من الشـارع، يـوم أطلقنـا النـداء المضاد لزحفْ الخرافة علينا من الجنوب. يـوم كوّر اللحم البشـري عضلة الروح وصاح: لن يمروا.. ولن نخرج. اشتبك اللحم مع الحـديد وتغلّب على علم الحساب العسير، فتـوقّف الغزاة على السـور. هناك وقت لـدفن المـوتى، وهناك وقت للسـلاح، وهنـاك وقت ليمـرّ الـوقت على هـوانـا.. لتطول البطولة، فنحن، نحنُ أصحابُ الوقت...

كان الخبز يصعد من التراب. وكان الماء ينبجس من الصخر. كانت صـواريخهم تحفر لنـا آبار المـاء، وكانت لغـة قتلهم تغرينـا بـالنشيـد: لن نخرج. وكنا نرى وجوهنا على شاشة الآخرين تغلي بالوعد العظيم وتخترق الحصار بشارات نصر لا تنكسر. لن نفقد شيئاً منذ الآن، ما دامت بيـروت هنا، وما دمنا هنا في بيروت ـ وسط هذا البحر، على بوابـة هذه الصحـراء

أسماءً لوطن مختلف، وعودة المعاني إلى مفرداتها، هنا خيمة للتائهة من المعاني، والضالّة من الألفاظ، ولشتات الضوء اليتيم المطرود من السوط. . .

فهل عرف هؤلاء الفتية المدججون بجهلٍ خلّاق لموازين القوى، وبمطالع أغنيات سابقة، وبقذائف يدوية، وزجاجات جعَةٍ ساخنة، وبشهوات فتيات في ملجإ، وبقصاصات هوية ممزقة، وبرغبات واضحة في الانتقام من آباء حكماء، وبجنون الخلاص من شيخوخة الفكرة، وبما لا يدرون من رياضة الموت النشيط. . . هل، هل عرفوا أنهم يصححون، بجراحهم وطيشهم المبدع، حبرَ اللغة التي ساست شرق المتوسط كُلّه في اتجاه غرب لا يطلب من العبودية غير تحسين شروط التحاقها، منذ حصار عكّا في العصور الوسطى حتى حصار بيروت المُكَلف بالانتقام من كل التاريخ في العصور الوسطى؟

وهل عرفوا حين انصرفوا إلى محاصرة الحصار، أنهم ينوبون عن الأسطورة في انتشال الواقع من الخارق إلى البسيط، ليرشدوا قارىء الرمل المضلّل إلى أسرار البطولة المكوّنة من البسيط إلى البسيط؟ كأن يُمْتَحَن رجل برجولته، وتمتحن أنثى بأنوثتها، وكأن يكون للكرامة قوة الاختيار بين الدفاع عنها أو الانتحار، وكأن لا يرضى الفارس باشتراط فروسيته الذاتية، الأخلاقية والجسدية، بعودة عصر الفروسية الرسمية. . وأن يشق بنفسه، وحيداً، هذا الفضاء المتطاول فيصوِّب مساراً لما فيه من غموض الحافز. وكأن تشقّ حفنة من البشر عصا الطاعة على المألوف كي لا يتساوى هذا الشعب، هذا الشعب المخلوق من مزاج النار العنيدة، مع قطعان الغنم

التي يـريد أن يسـوسهـا راعي القمـع وراعي الخـرافـة، معـاً، عبـر سيـاج التواطؤ.

لن يمـروا على حياتنـا. فليمروا، إن استـطاعوا أن يمـروا، على مـا تلفظه الروحُ من جثث.

فأين إرادتي؟

وقفتْ هناك، على الرصيف الثاني من الصوت الجماعي. أما الآن، فـلا أريـد أكثـر من رائحـة القهــوة. خجلتُ. خجلتُ من خـوفي وممن يدافعون عن رائحة البلاد البعيدة، الرائحة التي لم يشموها لأنهم لم يولدوا فيهـا. وُلدوا منهـا بعيداً عنهـا. وتعلموهـا بـلا انقـطاع وبـلا كلل أو ملل. تعلموها من ذاكرة مسلطة ومن مطاردة ملحة:

لستم من هنا ـ قيل لهم هناك.
ولستم من هنا ـ قيل لهم هنا.

وبين «هنا» و «هناك» شدّوا أجسادهم قوساً يتوتّر، حتى اتخـذ الموت فيهم هذه الصيغة الاحتفـالية. لقـد أخرج آبـاؤهم من هناك ليحلوا ضيـوفاً على هنا، ضيوفـاً مؤقتين، من أجل إخـلاء ساحـات الوطن من المـدنيين، ليتسنى للجيوش النظامية تطهيـر أرض العرب وشـرفهم من العار والـدنس: «أخي جـاوز الظالمـون المدى، فحق الجهـاد وحقّ الفدا.. طلعنـا عليهم طلوع المنون، فكانوا هباء وكـانوا سـدى». وبقدر مـا كانت تلك الأغـاني تطارد فلول الغزاة وتحرِّر الأرض سطراً سـطراً، كان هؤلاء، هنـا، يولـدون بلا مهد، وكيفمـا اتفق، على حصير أو في سلّة من قصب، أو على أوراق الموز، يولدون كيفما اتفق بـلا شهادة ميـلاد وبلا سجـل أسماء، بـلا فرح

وبلا ميلاد، كانوا أعباء على أهلهم وعلى جيران الخيمة، وباختصار: كانوا ولادة زائدة، كانوا بلا هوية.

وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه. عادت الجيوش النظامية. وبقي هؤلاء يولدون بلا سبب، ويكبرون بلا سبب، ويتذكرون بلا سبب، ويحاصرون بلا سبب. جميعهم يعرف القصة، شديدة الشبه بحادثة سير كونية وبواقعة طبيعية. ولكنهم قرأوا كثيراً في كتاب أجسادهم وأكواخهم، قرأوا تمييزهم وقرأوا الخطاب القومي، وقرأوا صادرات وكالة الغوث، وقرأوا سياط الشرطة. وظلّوا يكبرون ويزيدون عن حزام المخيم وعن مراكز الاعتقال. وقرأوا تاريخ الحصون والقلاع التي وقّعها الغزاة لتخليد أسمائهم على أرض ليست لهم، ولتزوير هوية الحجارة والبرتقال على سبيل المثال. أليس التاريخ قابلاً للرشوة؟ وإلا، فلماذا يحمل المكان، البحيرات والجبال والمدن، أسماءَ قادةٍ عسكريين لا لشيء إلا لأن أولئك القادة قد تنفسوا انطباعاً أولياً لدى المشاهدة، فتحولت كلمات الانطباع إلى أسماء نتناقلها حتى الآن؟ أو.. هريد ـ ما أجملها ـ هكذا قال قائد روماني حين رأى البحيرة في مقدونيا، فصار هذا الدهش هو اسمها. وقس على ذلك مئات الأسماء التي نشير بها إلى أمكنة أشار إليها قبلنا عسكري منتصر وصار من الصعب فكُّ الهوية عن هزيمتها. قلوع وحصون هي محاولات لحماية اسم لا يثق بخلوده من النسيان. حجارة مضادة للنسيان، حروب عكس النسيان. لا أحد يريد أن يَنْسى. وبشكل أدق: لا أحد يريد أن يُنْسى. وبشكل سلمي: ينجبون الأطفال ليحملوا أسماءهم، ليحملوا عنهم عبء الاسم أو مجده. إنه تاريخ طويل من عملية البحث عن توقيع على زمان أو مكان، ومن حلٍّ عقدة الاسم في مواجهة قوافل النسيان الطويلة...

فلماذا يطالب هؤلاء الذين ألقت بهم أمواج النسيان على ساحل بيروت أن يشذوا عن قاعدة الطبيعة البشرية؟ لم يطالبون بهذا القدر من النسيان؟ ومن هو القادر على تركيب ذاكرة جديدة لهم لا محتوى لها غير ظل مكسور لحياة بعيدة في وعاء من صفيح صارخ؟

أهناك ما يكفي من النسيان كي ينسوا؟

ومن سيساعدهم على النسيان في هذا القهر الذي لا يتوقف عن تذكيرهم باغترابهم عن المكان والمجتمع؟ من يرضى بهم مواطنين؟ من يحميهم من سياط الملاحقة والتمييز: لستم من هنا!

يستعرضون الهوية المرفوعة للتدليل على خطر الدخول وخطر الخروج، لمحاصرة الأوبئة، ويراقبون براعة استخدامها رافعةً قومية، هؤلاء المنسيون، المطرودون من النسيج الاجتماعي الداخلي، المنبوذون، المحرومون من حق العمل والمساواة، مطالبون في الوقت ذاته بأن يصفقوا لقمعهم لأنه يُوفّر لهم نعمة الذاكرة. وهكذا يُدْفَعُ المطالب بنسيان أنه إنسان إلى قبول استثنائه من الحقوق ليتدرّب على التحرّر من داء نسيان الوطن. عليه أن يُصاب بالسلّ كيلا ينسى أن له رئة، وعليه أن ينام في العراء كي لا ينسى أن له سماء أخرى. وعليه أن يعمل خادماً كيلا ينسى أن له مهمة وطنية. ويمنع من التوطين كيلا ينسى فلسطين. وباختصار، عليه أن يكون «آخر» أخيه العربي لأنه منذور للتحرير..

حسناً.. حسناً. لقد عرف واجبه: هويتي - بندقيتي، فلماذا يكيلون عليه تهماً لا تُحصى: إثارة الشغب، الإخلال بأصول الضيافة، التوريط، نشر عدوى السلاح؟ حين استكان أخرجوا روحه للكلاب الضالة، وحين تحرّك في اتجاه الوطن أخرجوا جسده للكلاب الضالّة. ولكن المثقفين

القادرين على ارتداء أحدث الأزياء النظرية، أقنعوه بأنه بديل السائد، وحين انقض عليه السائد، طالبوه بالنقد الذاتي لأنه أفرط في الوطنية، أفرط إلى درجة الخروج عن حظيرة السائد! الظروف ليست ناضجة. الظروف ليست ناضجة. وكان عليه أن ينتظر. ما العمل.. ما العمل؟ الثرثرة في مقاهي بيروت. لقد ثرثر حتى قيل له إن بيروت قد أفسدته. وامتشقت سيدات المجتمع البنادق الرشاشة، المحاطة بوسوسة المجوهرات، ليخطبن في حفلات الدفاع عن وطنية «المجدرة». وحين خجل وقال ما يعني أن الوطن ليس هذا الطعام، وتناول السلاح ليستخدمه خارج الحفلة، على الحدود، قالوا له: هذا تجاوز. وحين استخدم السلاح في معارك الدفاع عن النفس، في الداخل، ضد مندوبي الصهيونية المحليين قيل له: هذا تدخل في الشؤون الطائفية. ما العمل؟ إذن ما العمل لينهي عملية النقد الذاتي سوى الاعتذار عن وجود لم يوجد بعد. لستَ إلى هناك. ولستَ من هنا. ومن بين هذين النفيين وُلد هذا الجيل المدافع عن وعاء جسدي للروح، علّق عليه رائحة البلاد التي لا يعرفها. لقد قرأ ما قرأ، ورأى ما رأى، ولم يصدق أن الهزيمة حتمية. وتبع تلك الرائحة...

منهم أخجل، دون أن أعرف أني أخجل منهم، الغامض يتراكم على الغامض ليحتك ويقدح الوضوح. وفي وسع الغزاة أن يفعلوا كُلّ شيء، في وسعهم أن يسلطوا البحر والجو والبرّ عليّ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقتلعوا مني رائحة القهوة. سأصنع قهوتي الآن. سأشرب القهوة الآن. سأمتلىء برائحة القهوة الآن، لأتميز عن خروف، على الأقل، لأعيش يوماً آخر، أو أموت محاطاً برائحة القهوة...

. . تُبعد الإناء عن النـار الخفيفة لتجـري اليدُ أولى إبـداعاتهـا. ولا تكتـرث بالصـواريخ والقـذائف والطائـرات. فتلك إرادتي: سأذيـع رائحـة القهـوة لأمتلك فجري. لا تنـظر إلى الجبل الـذي يبصق كتله النـاريـة في اتجاه يديك. ولكنك لا تستطيع أن تنسى أنهم يرقصون هناك، يـرقصون من النشوة. كانت سيدات القرنفل، في صحف البارحـة، يرتمين على دبـابات الغـزاة في الأشرفيـة. كان النصف الأعلى من نهـودهن، والنصف السفلي من أفخـاذهن عاريـاً من الصيف ومن المتعة، ومعـداً جيداً جيـداً لاستقبال المخلّصين. قبِّلني يـا شلومـو، قبلني على فمي، مـا اسمـك يـا حبيبي لأناديك باسمك يـا حبيبي، شلومو كم انتـظَرتُكَ شغـافُ قلبي. أدخل، يـا شلومو، أدخل رويداً رويداً أو دفعة واحدة إلى بيتي لأحسّ فيك القوة. كم أحبُّ القوة يا حبيبي. واقصفوهم يا حبيبي، واذبحوهم، واقتلوهم بكل مـا فينا من انتظار. لتحمك سيدة لبنـان يا سيـد شلومو. أقصفـوهم ريثما أُعـدُّ لك كأس العرق والغداء يا حبيبي. بعد كم ساعة تقضـون عليهم، بعد كم سـاعة. لقـد طالت العمليـة، يا شلومـو، طالت، فلمـاذا أنتم بـطيئـون يـا حبيبي. شهران، ما بالكم لا تتقدمون؟ ولكن رائحتك كـريهة، يـا شلومو، لا بأس. هذا من الصيف والعـرق. سأغسلك بمـاء الفل يـا حبيبي. لماذا تبوّل في الشارع؟ هل تتكلم الفرنسيـة؟ لا؟ أين وُلدت؟ في تعـز؟ أين تعز هذه؟ في اليمن؟ لا بأس. . لا بأس. كنت أَظُنّكَ شيئاً آخر. مـا عليك يـا شلومو! أقصف من أجلي هناك. . هناك.

□ □ □

ملعقة واحدة من البُنّ المكهرب بالهـال تُرْسَى، ببطء، على تجـاعيد الماء السـاخن، تحركها تحريكاً بطيئاً بالملعقة، بشكل دائري في البـداية،

ثم من فوق إلى تحت. تضيف إليها الملعقة الثانية، تحركها من فوق إلى تحت ثم تحركها تحريكاً دائرياً من الشمال إلى اليمين، ثم تسكب عليها الملعقة الثالثة. بين الملعقة والأخرى أبعد الإناء عن النار ثم أعده إلى النار. بعد ذلك «لَقِّم» القهوة أي املأ الملعقة بالبن الذائب وارفعها إلى أعلى ثم أعدها عدة مرات إلى أسفل، إلى أن يعيد الماء غليانه وتبقى كتلة من البن ذي اللون الأشقر على سطح الماء، تتموّج وتتأهب للغرق. لا تدعها تغرق. أطفىء النار ولا تكترث بالصواريخ. خذ القهوة إلى الممرّ الضيّق. صُبّها بحنان وافتنان في فنجان أبيض، فالفناجين داكنة اللون تفسد حرية القهوة. راقب خطوط البخار وخيمة الرائحة المتصاعدة. أشعل سيجارتك الآن، السيجارة الأولى المصنوعة من أجل هذا الفنجان، السيجارة ذات المذاق الكوني التي لا يعادلها مذاق آخر غير مذاق السيجارة التي تتبع عملية الحب، بينما المرأة تدخِّن آخر العرق وخفوت الصوت. . .

ها أنذا أولد. امتلأت عروقي بمخدرها المنبّه، بعدما التقت بينبوع حياتها، الكافايين والنيكوتين وطقس لقائهما المخلوق من يدي. أتساءل: كيف تكتب يدٌ لا تبدع القهوة؟ كم قال لي أطباء القلب، وهم يدخنون: لا تدخِّن ولا تشرب القهوة. وكم مازحتهم: الحمار لا يدخن ولا يشرب القهوة، ولا يكتب.

أعرف قهوتي، وقهوة أُمي، وقهوة أصدقائي. أعرفها من بعيد وأعرف الفوارق بينها. لا قهوة تشبه قهوة أخرى. ودفاعي عن القهوة هو دفاع عن خصوصية الفارق. ليس هناك مذاق اسمه مذاق القهوة، فالقهوة ليست مفهوماً وليست مادة واحدة، وليست مطلقاً. لكُلٍّ شخص قهوته الخاصة،

الخاصة إلى حدّ أقيس معه درجة ذوق الشخص وأناقته النفسية بمذاق قهوته. ثمة قهوة لها مذاق الكزبرة. ذلك يعني أن مطبخ السيدة ليس مُرَتّباً. وثمة قهوة لها مذاق عصير الخروب. ذلك يعني أن صاحب البيت بخيل. وثمة قهوة لها رائحة العطر. ذلك يعني أن السيدة شديدة الاهتمام بمظاهر الأشياء. وثمة قهوة لها ملمس الطحلب في الفم. ذلك يعني أن صاحبها يساريّ طفولي. وثمة قهوة لها مذاق القدم من فرط ما تألبّ البن في الماء الساخن. ذلك يعني أن صاحبها يميني متطرف. وثمة قهوة لها مذاق الهال الطاغي. ذلك يعني أن السيدة محدثة النعمة...

لا قهوة تشبه قهوة أخرى. لكل بيت قهوته، ولكُلٍّ يد قهوتها، لأنه لا نفس تشبه نفساً أخرى. وأنا أعرف القهوة من بعيد: تسير في خط مستقيم، في البداية، ثم تتعرج وتتلوى وتتأوّد وتتأوّه وتلتفّ على سفوح ومنحدرات، تتشبّث بسنديانة أو بلوطة، وتتفلّت لتهبط الوادي وتلتفت إلى وراء، وتتفتّت حنيناً إلى صعود الجبل وتصعد حين تتشتت في خيوط الناي الراحل إلى بيتها الأوّل..

رائحةُ القهوة عودة وإعادة إلى الشيء الأول، لأنها تتحدّر من سلالة المكان الأول، هي رحلة بدأت من آلاف السنين وما زالت تعود. القهوة مكان. القهوةُ مسام تُسرِّب الداخل إلى الخارج، وانفصالٌ يُوحِّد ما لا يتوحّدُ إلا فيها هي رائحة القهوة. هي ضدُّ الفطام. ثدي يُرضع الرجال بعيداً. صباحٌ مولود من مذاق مُرّ، حليبُ الرجولة. والقهوة جغرافيا..

□ □ □

من هي تلك الناهضةُ من منامي؟

هـل هي حقاً كـانت تخاطبني قبـل الفجر، أم كنتُ أهـذي وأواصل المنام صاحياً؟

لم نلتق غيـر مـرتين. في المـرة الأولى حفـظت اسمي، وفي المـرة الثانية حفظت اسمها. وفي المـرة الثالثـة لم نلتق. فلماذا تنـاديني الآن من حلم كنتُ أنام فيه على ركبتها؟ لم أقل لها في المرة الأولى: أُحبـك. ولم تقل لي في المرة الثانية: أحبك. ولم نشرب القهوة معاً. . .

□ □ □

واعتـدتُ أن أحصي عدد السـوس في صحن حساء العـدس، الطبق اليـومي في السجون. . واعتـدت أن أتغلّب على الاشمئـزاز، لأن الشهيـة تتكيّف، ولأن الجوع أقوى من الشهيـة. ولكنني لم أتكيّف أبداً مـع غياب القهوة الصباحية، ومع تناول غسيل الشـاي. ألهذا لم أتعـايش مع ظـروف السجن؟ سألتني صديقـة بعد خـروجي من السجن الأول: هل استمتعت؟ قلت: لا، لأنهم لا يقدمون القهـوة. قالت: هـذا شيء فظيـع. وأضافت: ولكنني لا أشـربُ القهـوة. قلت: لا أعـرف سيـدات كثيـرات مهـووسـات بصباح القهوة. الرجل هو الذي يفتتح نهاره بالقهوة، أما المرأة فإنها تُفضِّلُ المكياج!

ليس ذلـك ما آلمني. لقـد تمكن أحد زمـلائي السجناء من إحضـار فنجـان من القهـوة لي، ذات صبـاح، تلقّفتـه بشبق ومنحتُ نفسي وقتـاً للتأمّل، ممـا دفع زميـلاً آخر إلى تصـويب نظرة استعـطاف نحو الفنجـان، تجـاهلتُها لأتـوحّد مـع ملكيتي، تجاهلتُهـا وتلذذت برشف القهـوة بسـاديـة أيقظتْ فيّ إحساساً بالإثم فيما بعد. كان ذلك قبل عشرين عاماً، وما زالت تلك النـظرة المتـوسلة تـلاحقني إلى الآن داعيـةً إيّـاي إلى إعـادة النـظر

المستمرة في نفسي وإلى تهذيب سلوكي، لأن العطاء وتقاسم الأشياء في السجن هو معيار صدق العطاء. لم أتخلّص من عقدة الذنب بما أغدقت عليه من أنصاف السجاير في محاولة لرشوة توازني النفسي. ما أشدّ أنانيتي! لقد حرمت زميلاً في السجن من نصف فنجان من القهوة، مما دفع الأقدار إلى معاقبتي، بعد أسبوع، يوم جاءت أُمي لزيارتي ومعها إبريق من القهوة دلقه الحارسُ على العشب...

□ □ □

والقهوة لا تُشرب على عجل. القهوةُ أُختُ الوقت. تُحْتَسَى على مهل.. على مهل. القهوةُ صوت المذاق، صوت الرائحة. القهوة تأمّل وتغلغل في النفس وفي الذكريات. والقهوة عادة تلازمها بعد السيجارة عادة أخرى هي.. الجريدة.

أين الجريدة؟ الساعة السادسة صباحاً. وأنا في عين الجحيم. ولكن الخبر هو ما يُقرأ لا ما يُسمع. والواقع، قبل تسجيل الواقع، ليس واقعاً تماماً. أعرف باحثاً في الشؤون الإسرائيلية لا يكفُّ عن تكذيب «الشائعات» القائلة إن بيروت محاصرة، لأنه لا يقرأ الحقيقة إلا إذا كانت مكتوبة باللغة العبرية. وبما أن الصحف الإسرائيلية لم تصل إليه، فإنه لا يعترف بأنّ بيروت محاصرة! ليس هذا ما يُصيبني من حماقة، فالجريدة الصباحية إدمان. أين الجريدة؟

تصاعدت هستيريا الطائرات. لقد جُنَّت السماء. جُنّت تماماً. يُنذر هذا الفجر بأن هذا اليوم هو آخر أيام الخليقة. فأين يضربون؟ أين لا يضربون؟ وهل تتسع منطقة المطار لكُلّ هذه القذائف القادرة على قَتْل

بحر؟ أفتح الراديو فأضطر للاستماع إلى الإعلانات التجارية السعيدة: ساعة سيتزن لضبط الوقت. سجائر ميريت، نكهة أكثر ونيكوتين أقل. تعال إلى مارلبورو، تعال إلى حيث المتعة. ميّة الصحة.. صحة «صحة من جبل عالي». ولكن أين الماء؟ غنج متزايد من مذيعات مونت كارلو الخارجات للتو من الحمام أو من غرف النوم المثيرة. قصفٌ شديد على بيروت. قصفٌ شديد على بيروت؟ أهذا هو الخبر كأنه نبأ عن يوم عادي من أيام حرب عادية، عادية في نشرة الأخبار. أحوِّل إبرة الراديو إلى إذاعة لندن، الفتور المميت ذاته في أصوات مذيعين يدخنون الغليون على مسمع من المستمعين، أصوات منقولة على موجة قصيرة مكبرة إلى موجة متوسطة تحوِّلها إلى كاريكاتور صوتي خبيث: ويقول مراسلنا إنه يبدو للمراقبين الحذرين أن ما يبدو مما يتضح عندما يتمكن المتحدث لولا صعوبة الاتصال بالوقائع لعلّ في الأمر ما يدل على أن كلا المتحاربين يحاول عسى ولا سيما ناهيك عن غموض ما قد يسفر عن طائرات مجهولة أسماء الطيارين تُحلِّق إذا أردنا الدقة حيث قد يتأكد أن بعض الناس يظهر في زيّ حسن. لغة عربية سليمة المعلومات تنتهي بأغنية ذات لغة عربية سليمة العواطف لمحمد عبد الوهاب: يا تجيني يا تقوللي أروح لك يا تقوللي أروح منك فين.

أصوات متشابهةُ الرتابة، رمل يصف بحراً، أصوات فصيحة ونزيهة تصف الموت كما تصف الأحوال الجوية، وكما لا تصف سباق الخيل والدراجات. عَمَّ أبحث؟ أفتح الباب عدة مرات ولا أعثر على الجريدة. لماذا أطلب الجريدة والبناياتُ تتساقط من الجهات كُلّها. ألا تكفيني هذه القراءة؟

ليس ذلك تماماً. فالباحث عن الجريدة وسط هذا الجحيم هاربٌ من الموت وحيداً إلى الموت الجماعي، باحث عن عينين إنسانيتين، عن صمت مشترك، وعن كلام متبادل، باحث عن مشاركة مّا في الموت، عن شاهد يشهد، عن شاهد على جثة، عن مُبلغٍ عن سقوط حصان، عن لغة للصمت وللكلام، عن انتظار أقلّ ضجراً لموت تأكد. فإن ما يقوله هذا الفولاذ، هذه الوحوش الفولاذية، هو أن أحداً لن يرى السكينة. ولن يحصي قتلانا..

كنت أكذب على نفسي، فليست فيّ حاجة إلى البحث عن وصف ما هو حولي وفي داخلي الدالف. حقيقةُ الأمر هي أنني كنتُ خائفاً من الوقوع بين الأنقاض، فريسةَ أنين لا يصل. كان ذلك مؤلماً، مؤلماً إلى حدّ التماهي مع الحادثة وقد حدثت. أنا الآن هناك بين الأنقاض. أحسُّ بوجع الحيوان المهروس فيّ. وأصرخ من وجعي ولا يسمعني أحد. كان ذلك «الألم ـ الشبح» القادم من اتجاه معاكس، مما قد يحدث. بعض الذين يصابون بساقهم يواصلون الإحساس بالوجع في الساق حتى بعد بترها بسنين. إنهم يمدون أيديهم لتحسس موضع الوجع في ساق لم يعد لها وجود. وقد يلاحقهم هذا الوجع الوهمي، الوجع الشبح إلى آخر العمر. أما أنا، فأشعر بوجع جرّاء إصابة لم تحدث. لقد طُحِنَتْ ساقاي تحت الأنقاض.

وهذه ظنوني: قد لا يقتلني الصاروخ بشكل خاطف دون أن أشعر. فقد ينهار عليّ حائط على مهل على مهل في عذاب لا ينتهي واستغاثة لا تبلّغ مصيري إلى أحد. قد يطحن ساقي أو ذراعي أو جمجمتي، أو قد يربض على صدري، وأبقى حيّاً عدة أيام لا وقت فيها لأحد للبحث عن

بقايا كائن. قد يختلط لحمي بالإسمنت والحديد والتراب فلا يَدُلُّ شيء عليّ. وقد ينغرز زجاج نظارتي في عيني فأصاب بالعمى. وقد يتغلغل عمود من الحديد في خاصرتي. وقد أنسى في زحام اللحم البشري المعوس المفقود بين الأنقاض. ولكن، لماذا أهتم بمصير جثتي وعنوانها إلى هذا الحد؟ لا أعرف. أريد جنازة حسنة التنظيم، يضعون فيها الجثمان السليم، لا المشوّه، في تابوت خشبي ملفوف بعَلَمٍ واضح الألوان الأربعة، ولو كانت مقتبسة من بيت شعر لا تدلُّ ألفاظه على معانيه، محمول على أكتاف أصدقائي، وأصدقائي ـ الأعداء.

وأريد أكاليل من الورد الأحمر والورد الأصفر. لا أريد اللون الورديّ الرخيص ولا أريد البنفسج لأنه يذيع رائحة الموت. وأريد مذيعاً قليل الثرثرة، قليل البحة، قادراً على ادعاء حزن مقنع، يتناوب مع أشرطة تُحمِّل صوتي بعض الكلام. أريد جنازة هادئة، واضحة، وكبيرة ليكون الوداع جميلاً وعكس اللقاء. فما أجمل حظ الموتى الجدد، في اليوم الأول من الوداع، حين يتبارى المودعون في مدائحهم. فرسان ليوم واحد، محبوبون ليوم واحد، أبرياء ليوم واحد.. لا نميمة ولا شتيمة ولا حسد. حسناً، وأنا بلا زوجة وبلا ولد. فذلك يوفر على بعض الأصدقاء جهد التمثيل الطويل لدور حزين لا ينتهي إلا بحنوٍّ الأرملة على المعزّي. وذلك يوفر على الولد مذلّة الوقوف على أبواب المؤسسات ذات البيروقراطية البدوية. حسنٌ أني وحيد.. وحيد.. وحيد.. لذلك ستكون جنازتي مجانية وبلا حساب مجاملة، ينصرف بعدها المشيعون إلى شؤونهم اليومية. أريد جنازة وتابوتاً أنيق الصنع أطلُّ منه، كما يريد توفيق الحكيم أن يطل، على المشيعين.. أسترقُ النظر إلى طريقتهم في

الـوقـوف، وفي المشي وفي التـأفف، وفي تحـويـل اللعـاب إلى دمــوع. وأستمع إلى التعليقات الساخرة: كان يحب النساء، وكان يبذخ في اختيـار الثياب. وكان سُجّاد بيته يصل إلى الركبتين، وكـان له قصـر على الساحـل الفـرنسي اللازوردي، وفيللا في اسبـانيا، وحسـاب سـريّ في زيـوريـخ، وكانت له طائرة سـرية خـاصة، وخمس سيـارات فخمة في مـرآب بيته في بيروت. ولا نعرف إذا كان له يخت خـاص في اليونـان. ولكن في بيته من أصداف البحر ما يكفي لبناء مخيّم. كان يكذب على النساء. مات الشـاعر ومات شعره معه. ماذا يبقى منه؟ لقد انتهت مـرحلته وانتهينـا من خرافتـه. أخذ شعره معه ورحل. كان طويل الأنف واللسان. . . وسأستمع إلى ما هو أقسى عندما تتحرر المخيلة من كُلٍّ شيء. سـأبتسم في التابـوت، سأبـذل جهداً لأن أقول: كفى، سأحاول العودة فلا أستطيع.

□ □ □

أمـا أن أموت هنـا، فلا. لا أريـد الموت تحت الأنقـاض. سـأدعي لنفسي أنني ذاهب إلى الشـارع للبحث عن الجريـدة، فـالخـوف عـار في حمَّى البـطولـة المتفشيـة من جميـع النـاس، من أولئـك الـذين لا نعـرف أسمـاءهم على خطوط الاشتبـاك، ومن أولئك البسـطاء الـذين اختـاروا أن يبقوا في بيروت، اختاروا أن يكرسوا أيامهم للبحث عن تنكة ماء وسط مطر القذائف، اختاروا أن يمدّدوا لحظة التحدي والصمود إلى تاريخ، اختـاروا أن يدفعوا لحمهم في صراع مع الحديد المنفجر. البطولـة هي هذا الجـزء المشطور من بيروت في هـذا الصيف الحارق. هي بيـروت الغربيـة. ليس من يموت هو من يمـوت بالمصـادفة. الحيُّ حيّ بـالمصادفـة، إذ لم يسلم

شبر واحد من صاروخ، ولم يسلم موقع خطوة واحـدة من انفجار. ولكنني لا أريد الموت تحت الأنقاض. أريد الموت في الشارع.

انتشر أمامي، فجأة، الدود المـوصوف في إحـدى الروايـات.. دود يرتب صفوفه وأنواعه وألوانه، بنظام صارم، لالتهام الجثة كأنه يسلخ اللحم كله عن العظام في دقائق. غارة واحدة.. غارتان ولا يبقى منّا غير الهيكـل العـظمي. دود يأتي من المجهـول.. ومن التـراب.. ومن الجثـة ذاتهـا. الجثة تأكل نفسها بجيش حسن التنظيم يطلع منها في لحظات. إنهـا صورة تفرغ الإنسان من بطولته ومن لحمـه، وتدفـع به في عـراء المصير العبثي، في العبث المطلق، في العدم الكـامل. صـورة تجرِّد الأنـاشيد من مـديح الموت ومن الفرار إلى الفرار. أَمِنْ أجل التغلّب على بشاعة هذه الحقيقة، فَتَحَ الخيالُ البشريُّ ـ ساكنُ الجثة ـ فضاءً لخلاص الروح من هـذا العدم؟ أهذا ما يقترحه الدين والشعر من حَلّ؟ ربما.. ربما..

□ □ □

.. ولأنني أعرف «سمير» منـذ الطفـولة، لم أذهب إلى غيبـوبته في المستشفى. لقـد بترت الـطائرات سـاقيه وذراعيـه، بقـرت بـطنه وسملت عينيه، عندما كان يخلي المصابين في ميدان المدينة الـرياضيـة. ماذا تبقّى منه؟ أعني ماذا تبقّى من وسامة كانت توقد الجمر تحت ثياب الفتيات؟ كنـا معاً في المدرسة الثانوية في كفر ياسيف. لم يحضـر الدروس كثيـراً. كان ساهياً وغائباً، يُؤْثِرُ البحر واصـطياد العصـافير على الكتب، ولا يشـارك في شغب التلاميذ. فيه حُسنُ يوسف وخَفَرٌ بلا تقوى. عينان زرقاوان صافيتـان من بحر عكا وأُمّـه الحسناء الـطاغية. شعـر كستنائي مُجعَّـد، وجبين واسع يطل على ما فوقنا. كـان بعيداً بعيـداً وقويّ البنيـة. ولم نعرف لمـاذا ابتعد

عن المدرسة وعن العائلة وعن الوطن إلى أن أشعل حرب حزيران. هكـذا قالت الصحف الإسرائيلية بعناوين عريضة: إلقاء القبض على فدائي تسلّل عبر الحدود لينسف حيفا. كان ذلك عشية حـرب حزيـران. وكان الإعـلام الإسـرائيلي منكبـاً على إعـداد الـذرائـع لإعـلان الحـرب. لم نصـدِّق أن «سمير» فدائي فلسطيني، إذ لم يسبق له أن انخرط معنا في نشاط عام، إلا بعدما طالعتنا قامتُهُ المديدة في الصحف وهـو يرسف في الأغـلال. حدَّثني أبوه، وهو ابن عمي، كيف كانت الشرطة تُسْمِعُهُ ـ خلف جدران الزنـزانة ـ أنين «سمير» تحت التعذيب المتـواصل. قـطيعٌ من الـذئاب يستفـرد بغزال أسير. لقد تحطم والده تماماً وهو يستمع إلى الموت البطيء المتصاعد من جسد «سمير»، المرفّه، المنعّم، المدلّل، الأنيق، الوسيم. ولكن أمّه ذات الجمال الجَهُوريّ حمت أعصابها، وتوازنها النفسي، بما أيقظ في أمومتهـا من حـاسّة الـزهو أمـام تحوّل ابنهـا إلى رجل يتحـدى دولـة هـزمت دولاً، فرفعت أحزانهـا إلى كبريـاء. حكموا على «سميـر» بالسجن المؤبّـد. وفي السجن استطاع أن يُمَثِّل دور المتعاون مع إدارة السجن، متحمـلاً إهانـات زملائه الفـدائيين، لينفّذ خـطته، ويعمـل في مطبـخ السجن، حيث حصل على مـا يحتـاجــه من أدوات حـادة، وعكف شهــوراً على قـطع قضبــان الـزنزانـة، إلى أن حانت سـاعة الصفـر، وتمكن من تهريب بعض زمـلائه السجنـاء. أصّر على أن يكـون آخر النـاجين، إلى أن انتبـه الحـراس إلى العملية وانتزعوه من قضبان النـافذة ليحكمـوا عليه، مـرة أخرى، بـالسجن المؤبّد الثاني. بعـد محاولـة أخرى، حكم عليـه بالسجن المؤبّـد الثالث. وهكـذا، كـان على «سميـر» أن يعيش ثـلاثـة أعمـار أخــرى ليتم إطـلاق سراحه... وفي عملية تبادل أسرى خرج «سميـر» إلى نور الـوطن العربي الكبير، فلم يصدِّق الفارقَ بين الفكرة وصـورة الفكرة، ولـم يصـدق التنافـر

بين الحلم وأداة الحلم، فلجأ إلى مفاضلة السجناء التقليدية بين الحرية الخارجية الشكلية وبين الحرية الداخلية المجازية المنبثقة من تماسك اليقين، وسلام النفس، والارتباط بالخارج برباط المثال. لقد ألفنا شكوى الخارجين من حريتهم الداخلية إلى حريتنا المُشَوَّهة، وألفنا خيبتهم من كُلِّ ما يخدش مخيلتهم عنا وتصوّرهُمْ عن الخارج. قال لي «سمير»، حين التقيته بعد عشرين عاماً في دمشق: أهذا هو الوضع؟ ليس من أجل هذا دخلت. وليس من أجل هذا خرجت. ولكن ما فيه من وفاء لارتباط الإطار والفكرة حال دون ذهابه بالخيبة إلى منتهاها؛ إلى استبدال الإطار والأداة بما هو أكثر توازناً وانسجاماً. كان شديد الخيبة من المؤسسة وشديد الالتحام بها. ليس في وسع رجل مثلي ـ قال ـ أن يغيّر جلده، لا خوفاً من إرهاب المؤسسة، بل خوفاً من انهيار أحد عناصر التوازن. فلا أعتبر نفسي ـ سواء أكنت في هذا التنظيم أم في ذاك ـ خادماً لفكرة فلسطين وشعبها، دون أن أقبل الانسياق في صراع التنظيمات وفي خداع تبعية بعضها، وهي لا تشملني، إلى هذا النظام أو ذاك. كان يسيّج نفسه وتميُّزها بالجناح المطلق من الفكرة. كان يخشى أن يؤدي أيُّ تعديل في إطاره إلى الطعن في صدق تاريخه وفي حرارة تضحيته، لأن الاعتراض ـ في غياب الوطن والمجتمع وما يبلورانه من سُلّم قيم ـ قابلٌ للشك والتشكيك الشائعين في حروب كلام لا تضبطها ضوابط أخلاقية ووطنية. ولم يسفر مثل هذا النوع من «الحوار الوطني» إلا عن اغتيال، ولم يبرأ من تراشق هذه التهم أحدٌ منا. ثم استقر «سمير» في بيروت، ليواصل أسئلته الجارحة حول الحرية في السجن، والسجن في حرية قابلة للفساد وإلغاء نظام العقوبات، حتى لو تمكن أحد الناطقين باسم هذه الحرية من تدمير بناية على ساكنيها لتصفية حساب مع عضو في التنظيم، دون أن يفقد عضويته في القيادة،

وحقّه في تمثيل نظام عربي تمثيلاً مُدَوّياً في القيادة! لعلّ المحاكمة التي تستحقها الثورة هي أنها كانت خالية، وما زالت خالية، من تقاليد محاكمة أعضاء القيادة على جرائمهم المدوية. واقتصرت المحاكمة على تتبُّع جنايات أخلاقية يرتكبها شهداء المستقبل خلال بحثهم عن متعة عابرة في سيجارة حشيش، أو امرأة تغوي، قبل أن يتحولوا إلى منصة للخطابة. كان يصعب على «سمير»، وعلى أمثاله الخارجين من السجون الإسرائيلية، أن يدركوا كيف يقفز بعض ممثلي المخابرات على درجات سُلّم القيادة بذريعة المحافظة على «توازن» تعبر عنه الثورة في علاقاتها بالدول. هل نحن جامعة الدول العربية؟ لم يتمكن من إدمان هذه التقاليد الملتبسة، لأنه لم ينضج إلى درجة «الواقعية» التي تتطلب استيعابها الأشواط التي قطعها الخطاب السياسي الفلسطيني في علاقته المعقدة بالقاعدة العربية، والقمة العربية، وذهب كل واحد في اتجاه معاكس، فاستمدت «الوحدة الوطنية» أحد مقوماتها من تضامن الحكومات في المنظمة لا مع المنظمة!.. ولكن «سمير» المضرج بالأسئلة عن الحرية في السجن وعن السجن في الحرية انخرط في موجة تساهل عام جَرَفَتْنا جميعاً إلى شاطىء القدرية.

.. ولأنني أعرفه منذ الطفولة، لم أذهب إليه في المستشفى، مستشفى البربير. لن تعرفه ـ قالوا لي. وإذا كنت تحبه ـ قالوا لي ـ صلِّ له أن يموت، لأن الموت راحتُهُ الوحيدة.. فقد دخل في «الكوما».. دخل في الموت حيّاً..

إذن، لم يُطلق سراحه. لقد لاحقوه حتى بيروت. استبدلوا أحكام

السجن المؤبّد بالإعدام قصفاً بالطائرات. مات «سمير». . مات حَبَقُ العائلة. .

□ □ □

. . لا أريد أن أموت، مشوّهاً، بين الأنقاض، أتمنى أن أُقصف على حين غفلة. . في الشارع. أتمنى أن أحترق تماماً. . أن أتفحّم، فلا يعثر دود الرواية إيّاه على وظيفته الخالدة فيّ، إذ ليس من عادة الدود أن يأكل الفحم. .

وهكذا، سأقول لنفسي إنني أبحث عن جريدة. . لأبرر سيري في شارع لا قطة فيه ولا كلب.

لم آبه بما يحدث خارج الزجاج. قذائف. صواريخ. بوارج. طائرات. مدفعية. تهبُّ عليّ كما تهب الرياح. تنزل كما يهطل المطر. تتحرك كما يتحرك الزلزال. لا تستطيع الإرادة البشرية أن تفعل حيالها شيئاً كأنه قدر لا يُرد. كُلُّ ما تمخّض عنه الخيال البشري من إبداعات الشر الخارقة، وما بلغته التكنولوجيا من تقدم، يجري امتحان فاعليتها في أجسادنا اليوم. أيكون هذا اليوم أطول يوم في التاريخ؟ لا أحد يغسل الموتى، فليغسل الميت نفسه بنفسه، أعني بدم فاض عن الماء. أجمع ثروتي المائية، وأستخدم كل قطرة منها بحرص فائق. لكُلّ قطرة دور. أكاد أعُدُّ قطرات الماء. خمسمائة قطرة لغسل الشعر. ألفان للجسد. مائة للفم. مائة للحلاقة. عشرون لكُلِّ أُذن. خمسون لكُلِّ إبط. . و. . و. . لكُلِّ قطرة قطعة من الجسد.

ما الماء؟ من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ ما

المـاء؟ . . كيماويـاً H^2O. ياء. دال. اثنـان. ألف. أهذا هـو كـل شيء؟ ولكن، ما هذه النشوة التي تفتح الجلد لتوصلنا إلى عيدٍ هناك. . في أرجاء الجسد وضواحيه فتقترب من طباع الفراش. الماء فرح الحـواس وما يحيط بهـا من هواء. المـاء هو الهـواء المقطّر الملمـوس المحسـوس المغمـوس بالضوء. ولهذا حث الأنبياء شعوبهم على حب الماء «وجعلنا من الماء كـل شيء حيّ». أتذكر رسالة ابن فضـلان فأتقـزز من ماء في وعـاء كان يغسـل جيشاً بأكمله. لقد قطع عنا ممثلو الصليبيين الماء، بينما كان صـلاح الدين الأيـوبي يرسـل الثلج والفواكـه إلى أعدائـه «لعل قلوبهم تـرق» كمـا كـان يقول. وأضحك فجأة من أغنية تقـول «الميّه تـروي العطشـان»، وأتساءل: كيف عـرف المغني هـذا الاكتشـاف المبهـر؟ وفي تـل الـزعتـر كـان القتلة يصطادون الفلسطينيات على نبع الماء، على ماسورة الماء المكسورة، كما يصـطاد الصيادون الغـزلان العطاش. المـاء القاتـل. المـاء المخلوط بـدم العـطشى الذين غـامروا بحيـاتهم من أجل كـوب ماء. المـاء الذي أشعـل حروب البدو في الـزمان القـديم. الماء الصـالح لتحسين شـروط التفاوض لدى من لم يلمس الماء إنسانيتهم اليابسة. الماء الـذي حَرَّك ملوك العـرب وحمّلهم مشقـة الاتصال الهـاتفي مع الـرئيس الأمـريكي لإجـراء مقـايضـة رابحة: خذ الـدم، وهات المـاء. خذ النفط وهـات الماء. خـذنا، وهـات الماء!

وصـوتُ الماء ضجيـج عرس، أعلى أعلى من أصـوات الطائـرات. صوت الماء مرايا لعروق الأرض الحيّة. صـوت الماء هـو الحريـة. صوتُ الماء هو الإنسانية.

وما إن يعلن «البيت الأبيض» في واشنطن عن عودة الماء إلى بيروت

الغربية حتى يهبّ المحاصرون إلى حنفياتهم إلا نحن. . نحن سُكّان هـذه البناية العالية، العالية إلى أعلى نداء العطش. فقد حاصـرنا صـاحبها قبـل حصار بيروت بسنين، منذ انحلّت السلطة، فجُنّ هو بسلطته: السلطة على الماء. ما إن يتشاجر مع أحد المستأجرين، أو مـع زوجته، أو مـع حسابـه في البنـك، حتى يهبّ إلى قطع المـاء عنا جميعـاً. لذلـك ربّى فينـا، من زمـان، هذا الصبـر على الماء. ربّى فينـا مدائـح الماء. وعلّمنـا أن نفـرح بـالماء، حين يتـدفق ساعـة، كما لم تفـرح به قبـائل داحس، وحـوّلنا إلى حـراس أنابيب، نتجسّس منـذ الفجر على صـوت المـاء المـرتقب. وحين نسمع غرغرة الماء نعلن العيد ونجمع مـا تهبنا رحمتـه في الأواني والقناني والصحون والكؤوس وفي جيوب المعاطف الجلدية، فالماء في هذه البنايـة كنز نجلّله بالطقوس، ونتحدث عن سيرته في سهراتنا. لقد وحّـدنا حـديث المـاء وحوّلنـا إلى عائلة واحـدة. ولكن صاحب البنـاية يغـار من شـارون، وينـافسه في الســادية. فحين تبتهـج بيروت الغـربية بـالإفـراج عن المـاء، نكتفي نحن بدور التضامن، لأن هذه البهجة لا تشملنا ولأن الماء لا يصـل إلينا. نحن آخر الأسرى يا أبا ربيع. إغفر لنا ذنوباً لم نرتكبها يا أبا ربيـع. الدنيا حرب يا أبا ربيع. والعفو عند المقدرة يا أبا ربيع. وما من سميع ومـا من شفيع، إلى أن اضطررت إلى الاستعانة باللجان الشعبية المسلحة التي أفرجت عن الماء بقوة، فنسينا الحـرب ونسينا الحصـار من فرط مـا فرحنـا بالماء. .

لي. . ولمن اكتوى، مثلي، بجروح المـاء، قدم «ابن سيـده» أسماء الماء ونعوته، هذا غيض من فيضها:

ماء. ماءة. مويه. أمواه. مياه. ماهة. بلال. رجع. أبيض. أسـود.

عتيق. عـدّ. كَرَع. غَمْـر. عُلْجوم. بَـلاثِق. زَغْـرُب. السعْبَـر. الـطيْس. الطيسل. الـرّيْب. الجوار. الخِضْـرَم. القَلَيْذُم. العُبـام. الهُر. الهـرهور. الهـرهار. الهـراهر. اليهمـور. الزمـزم. الزُمـزوم. الـزمـزام. القـامـوس. الجُراجر. اليهيري. الضحضاح. الكوثر. الأهْيَـغ. الجبجاب. الهُـلاهل. الـطرطبيس. البثق. الحـائـر. الحَفْـل. الأزيَب. الثَمَـد. المشفـوه. المضفـوف. الـرقـراق. الـرقّ. الفَـراش. الـطَسْـل. الضَهْـل. السَمَـل. البـرْضُ. النُطْفـة. الرزَغ. الصُبّـة. الشَوْل. الـرَفَض. الخِبْط. الصُبابـة. القصملة. الصـلاصل. الصُلْصُـل. الذُفـاف. الذُفّ. الـذُفف. القطرب. الـزَرْجُون. المَـزّة. المجّة. النُقْمـة. النُغْبـة. المُكْلَة. النُشْفـة. الغُـرْفـة. القُرحة. الحُسْوة. المُزْعـة. السؤر. الوَشَـل. اللزب. الجحْقة. الهـلال. الـرشْفُ. الطمْلَة. الـدعْث. الحَيْل. الـطلّح. النقَاخ. الـزلال. الفُرات. الرُضاب. الفضيض. الشريب. الشروب. الهُجهج. المُخْضم. الزُعـاق. الـذُعاق. النمير. المَسُـوس. البـاضـع. الغـريض. البُسـر. الحنبـريت. القراح.

وغيرها. . وغيرها. . وغيرها.

□ □ □

. . أهبط على الـدرج الحجري الـطويل وسط الـزجاج المهشّم. لا أعـرف إن كانت الـطوابق السفلى قـد أُصيبت. وأتسـاءل: مـاذا أفعـل لـو انقضّت عليّ جثة؟ كيف سأحملهـا ولمن أنقلها؟ . . مـاذا أفعل لـو لم أجد أحـداً أتحدث إليـه، لمن أنقـل كـلامي ومن يشـاطـرني صمتي؟ سـأُصفّـر لحنـاً. . مطلع أغـاني بيروت المتفجـرة من هذه الحـرب. لم تكن بيروت للغنـاء. ولم يستخدم الشعـر اللبناني اسم بيـروت القابـل لـلاستعمـال في

جميع بحور الشعر. اسم موسيقي ينساب بسلاسة في قصيدة النثر وفي القصيدة. . وماذا أفعل لو لم أجد قطة أُداعبها؟ ماذا سأفعل لو لم أجد ما أفعل؟

على الطابق الرابع باب مفتوح. صباح الخير يا أُستاذي. هكذا كنت أُخاطبه منذ عشر سنين. في الثمانين من العمر، وسيم، هادىء، كأنه قلب يمشي على قدمين. رحل من منزله الكائن على خطوط التماس بعدما انهارت عليه جدرانه الثلاثة، وأقام في شقتي ستة شهور عندما كنت مختفياً في أوروبا، ثم أقام في شقة ابنته. كنت أزوره يومياً وأحمل عنه عبء الحرب، وأحمل له الكعكة والجريدة. كان شاعراً مجدداً، ولعله أول من كتب قصيدة النثر ثم توقف عن كتابة الشعر ليتفرغ، كلية، لمجلته الأدبية الشهرية. كان هو هيئة التحرير والإدارة والموزِّع والمصحِّح. لم تعادل شكواه من وحشية القصف غير شكواه من الماء وصاحب البناية. كان يأنس إليّ وإلى أحفاده، ويتقبّل اضطهاد زوجته ذات الشخصية الطاغية بابتسامة اعتذار عن ذنب لم يرتكبه. وحين كان يصرخ من الألم العصبيّ الذي يسبّبه إلحاح الطائرات المغيرة: كفى، ماذا تريدون منّا. نحن نعرف أنكم أقوى منّا. ونعرف أنكم تمتلكون طائرات أحدث، وأسلحة أشد فتكاً. ولكن ماذا تريدون منا. . كفى! كانت زوجته تزجره: دعهم. . وشأنهم. . عايزين يضربوا. . وأنت مالك ـ تقولها باللهجة المصرية الرادعة دون أن تخجل من وجودي: عايزين يضربوا الفلسطينيين. وكنت أمازحه لأقطع تيار الحرب المكهرب: حقاً، لماذا تعرقل عمل الطيارين؟ فيضحك، وهي لا تضحك. كانت في داخلها التربوي المعادي لما هو خارج طائفتها تحتفل بالخدمة المجانية التي يقدمها الإسرائيليون لبطل أحلامها الوحيد: بشير

الجميل. كانت تعتقد أن هذه الحرب هي مجرد تطوع إسرائيلي لتنظيف لبنان من الغرباء والمسلمين، وحين ستنتهي بوصول بطل أحلامها إلى رئاسة الجمهورية، وبخروج الغرباء من لبنان، سيعود الإسرائيليون من حيث جاءوا دون أن يحصلوا على أي أجر. كان في وسعك أن تجادلها في سيرة السيد المسيح والسيدة مريم العذراء ورسائل بولس دون أن تنفعل. أما البشير، فتحيط اسمه بحزام التابو المقدّس. يا سيدة لبنان احفظيه لنا!.. ومع ذلك لم أكنّ لها العداء، بل الإحساس بالشفقة على ما قطعته من أشواط الوهم ورفض «الآخر». ولم أحمل لها الضغينة، بل حملت لها ما أجده لدى الباعة من خبز وعنب. فأمام مثل هذا الانغلاق الصلب والتشكُّل النهائي تتوقف محاولات الإقناع. وعبثاً حاول الأستاذ، ذو الماضي العلماني، أن يقنعها بأن الاسرائيليين لا يحبون لبنان ولا يدافعون عن لبنان، وأن صاروخاً واحداً من طائرتهم سيحولنا، نحن الموارنة والمسلمين الجالسين في هذه الشقة، إلى كَفْتة! وهي، هي المحصنة بقناعتها النهائية، تحبُّ المناقشة العقيمة. ويسألني الأستاذ رأيي ليساعدني عليها، فأتجنب الاستفزاز وما قد تغدقه عليّ من باطن، قائلاً: ليست تلك مشكلتي، فتحرك الماء الراكد: إذن، ما هي مشكلتك؟

أُناور قائلاً: مشكلتي هي أن أعرف ما هي مشكلتي. وفي المناسبة، هل أفرج صاحب البناية عن الماء؟

تقول: لا تتهرب مما نحن فيه. أنت تعرف أن لا مشكلة بين الموارنة واليهود.

أقول: لا أعرف ذلك.

تقول: أنت تعرف أننا حلفاء.

أقول: لا أعرف.

تقول: إذن، ماذا تعرف؟

أقول: أعرف أن للماء لوناً وطعماً ورائحة.

تقول: لماذا لا تذهبون إلى بلادكم وتنتهي المشكلة؟

أقول: هكذا. ببساطة. نعود إلى بلادنا. وتنتهي المشكلة؟

تقول: نعم.

أقول: ألا تعرفين أنهم لا يسمحون لنا بالذهاب إلى بلادنا؟

تقول: إذن حاربوهم.

أقول: ها نحن نحاربهم. ألسنا في حالة حرب؟

تقول: أنتم تحاربون لتبقوا هنا، ولا تحاربون لتعودوا.

أقول: كي نعود إلى هناك، لا بد من أن نكون في مكان ما، فالعائد ـ إن عاد ـ لا يعود من عدم.

تقول: لماذا لا تقيمون في البلاد العربية وتحاربون منها؟

أقول: قالوا لنا ما تقولينه الآن لنا. طردونا. وها نحن نقاتل هنا مع اللبنانيين دفاعاً عن بيروت، ودفاعاً عن وجودنا.

تقول: حربكم بلا هدف ولا توصل إلى نتيجة.

أقول: ربما لن توصل إلى نتيجة. ولكن هدفها هو الدفاع عن النفس.

تقول: عليكم أن تخرجوا من هنا.

أقول: لقد وافقنا على الخروج. سنخرج. وها هم يمنعوننا من الخروج. ولكن، ألا يعنيك إلى أين سنخرج؟

تقول: لا يعنيني.

وارتفع من الراديو صوت فيروز: بحبك يـا لبنان. ارتفـع من إذاعتين متحاربتين.

قلت: ألا تحبين هذه الأغنية؟

قالت: أُحبها. وأنت؟

قلت: أُحبها كثيراً، وتوجعني.

قالت: بأي حق تُحبّها؟ ألا ترى إلى أيّ حد تماديتم.

قلت: إنها أغنية جميلة.. ولبنان جميل. وهذا كل ما في الأمر.

قالت: عليك أن تحبَّ القدس.

قلت: أُحبّ القـدس. والإسرائيليـون يحبون القـدس ويغنـون لهـا. وأنت تحبين القــدس.. وفيــروز تغني للقــدس.. وريكــاردوس أحــب القدس.. و..

قالت: لا. أنا لا أُحبُّ القدس.

□ □ □

الشارع. الساعة السابعة. الأفق بيضة ضخمـة من فولاذ. لمن أقـدم صمتي البـريء. صـار الشـارع أعـرض. أمشي على مهــل. وأمشي على مهل.. وأمشي على مهل كي لا تخطئني طائـرة. يفتح العـدم أشداقـه ولا يبتلعني. أسيـر بلا هـدف كأنني أتعـرف على هذه الشـوارع للمرة الأولى، وكـأنني أسير عليهـا للمـرة الأخيـرة. وداع من طـرف واحـد. أنـا المُشَيِّـعُ والمُشَيَّعُ. لو قطة.. لو أجد قطة. لا حزن. لا فرح. لا بداية. لا نهـاية. لا غضب. لا رضا. لا ذكرى، لا حلم. لا ماض. لا غد. لا صـوت. لا صمت. لا حـرب. لا سلام. لا حيـاة. لا مـوت. لا نعم. لا لا. تـزوّج الموج طحلبَ الصخرة على شاطىء بعيد وخرجتُ، للتو، من هـذا الزواج

الذي دام مليون سنة. خرجت للتو فلم أعرف أين أنـا. لم أعرف مَنْ أنـا. لم أعـرف ما اسمي، ولا اسم هـذا المكـان. لم أعـرف أن في وسعي أن أمتشق ضلعاً من ضلوعي لأجـد فيـه حـواراً لهـذا السكـون المـطلق. مـا اسمي، مَنْ سمّاني. مَنْ سيُسمّيني: آدم!.

□ □ □

«. . . ثم إن الله خلق، بعـد القلم وبعد أن أمـره فكتب ما هـو كائن إلى يوم القيامـة، سحابـاً رقيقاً هـو الغمام الـذي قال فيـه النبيّ، ﷺ، وقد سأله أبو رزين العقيلي: أين كان رَبُّنا قبل أن يخلق الخلق؟

فقال: في غمامٍ، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خَلَقَ عرشـه على الماء.

قلت: هذا فيه نـظر، لأنه قـد تقدم أن أوَّل مـا خلق الله تعالى القلم وقـال له: أكتب. . . فجـرى في تلك السـاعـة، ثم ذُكـر أن الله خلق بعـد القلم، وبعد أن جرى بما هو كائن، سحاباً، ومن المعلوم أن الكتابة لا بُدّ فيهـا من آلـة يُكتب بهـا، وهـو القلم، ومن شيء يُكتب فيـه، وهـو اللوح المحفوظ. فكان ينبغي أن يذكر اللوح المحفوظ ثانياً للقلم، والله أعلم. . ويحتمل أن يكون تُرك ذكره لأنه معلوم من مفهوم اللفظ بطريق الملازمة. .

ثم اختلف العلماء فيمن خلق الله بعد الغمـام، فروى الضحّـاك عن ابن مزاحم عن ابن عبّاس: أوّلُ ما خلق اللهُ العرش، فاستوى عليـه. وقال آخرون: خلق الله الماءَ قبل العرش، وخلق العرش فوضعه على الماء.

وقيل. إن الذي خلق الله تعالى بعد القلم الكرسيّ، ثم العرش، ثم الهواء، ثم الظلمات، ثم الماء، فوضع العرش عليه.

قـال: وقول من قـال: إن المـاء خلق قبـل العـرش أولى بـالصـواب لحـديث أبي رزين عن النبي، ﷺ، وقـد قيـل: إن المـاء كـان على متن الـريح حين خُلق العـرش، قالـه سعيد بن جبيـر عن ابن عباس، فـإن كان كذلك، فقد خُلقا قبل العرش.

وقال غيره: إن الله خلق القلم قبل أن يخلق شيئاً بألف عام.

واختلفـوا أيضاً في اليـوم الذي ابتـدأ الله تعالى فيـه خلق السمـوات والأرض. وقـال عبد الله بن سـلام، وكعب، والضحّاك، ومجـاهد: ابتـداء الخلق يوم الأحد. وقـال محمد بن إسحـاق: ابتداء الخلق يـوم السبت.. وكذلك قال أبو هريرة.

واختلفوا أيضاً فيمـا خلق كُلّ يـوم، فقال عبـد الله بن سلام: إن الله تعـالى بدأ الخلق يـوم الأحد، فخلق الأرضين يـوم الأحد والاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والاربعـاء، وخلق السموات يـومي الخميس والجمعة، ففرغ آخـر ساعـة من الجمعة، فخلق فيهـا آدم، عليه السـلام، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة.

وقـال ابن عباس من روايـة عكرمـة عنه: إن الله تعـالى وضـع البيت على المـاء على أربعة أركـان قبل أن يخلق الـدنيا بـألفي عـام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت.

وروى السريُّ عن أبي صالح، وعن أبي مالك عن ابن عبّاس، وعن مُرّة الهمذاني وعن ابن مسعـود: إن الله عزّ وجـلّ كان عـرشه على المـاء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبـل الماء، فلمـا أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء، فسما عليه، فسمّاه سمـاء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فَتَقَها فجعلها سبـع أرضين في يومين: يـوم الأحد

ويوم الاثنين. فخلق الأرض على حوت، والحوت النون الذي ذكره تعالى في القرآن في قوله: ﴿ن والقلم﴾. والحوت في الماء. والماء على ظهر صفاة، والصَفَاةُ على ظهر مَلَك، والملك على صخرة، والصخرةُ في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لُقمان، ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضطربت وتزلزلت الأرضُ، فأرسى عليها الجبال فقرّت.

قال ابن عباس والضحّاك ومجاهد وكعب وغيرهم: كُلُّ يوم من هذه الأيام الستة التي خلق الله فيها السماء والأرض كألف سنة.

... واختلف العلماء في الليل والنهار، أيُّهما خُلِق قبل صاحبه، بعضهم يقول: إن الليل خلق قبل النهار. وقال آخرون: كان النهار قبل الليل، واستدلوا بأن الله تعالى كان ولا شيء معه، ولا ليل ولا نهار، وأن نوره كان يضيء به كل شيء خلقه حتى خلق الليل. قال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار. نور السموات من نور وجهه. وقال عبيد بن عمير الحارثي: كنتُ عند عليّ فسأله ابن الكوّاء عن السواد الذي في القمر فقال: ذلك آيةٌ محيت. وروى أبو جعفر حديثاً طويلاً عن ابن عباس عن النبي، ﷺ، في خلق الشمس والقمر وسيرهما، فإنهما على عجلتين، لكلٍّ عجلة ثلاث مائة وستون عُروة، يجرها بعددها من الملائكة، وأنهما يسقطان عن العجلتين فيغوصان في بحر بين السماء والأرض، فذلك كسوفهما، ثم إن الملائكة يخرجونهما فذلك تجليتهما من الكسوف...»

ابن الأثير [الكامل في التاريخ]

□ □ □

.. أسير وسط الشارع تماماً، ولا يهمني أن أعرف إلى أين أنا سائر، وكأنني في سرنمة. لا أخرج من شيء ولا أدخل في شيء. ولكن هدير هواجسي المتلاطمة يعلو على هدير طائرات لا أكترث بها..

لم نفهم لبنان. لم نفهم لبنان أبداً. ولن نفهم لبنان. لن نفهم لبنان إلى الأبد..

لم نر من لبنان غير صورتنا على وجه الحجر المصقول، مُخيّلة تُعيد خلق العالم على شاكلتها، لا لأنها واهمة بل لأنها في حاجة إلى أن تضع للخيال موطىء قدم. شيء من صناعة الفيديو: نكتب القصة، والسيناريو والحوار والمنتج والمخرج، ونوزِّع الأدوار دون أن ننتبه إلى أننا نحن الموزعون في أدوار. وحين نرى إلى وجوهنا ودمنا على الشاشة، نصفّق للصورة ناسين أنها من صناعتنا. وما أن يتحول الإنتاج إلى إعادة إنتاج حتى نُصَدِّق أن «الآخر» هو الذي يشير إلينا.

هل كان في مقدورنا أن نرى بشكل آخر غير ما يُسَهِّل علينا تأليب الواقع على ماديته؟ بنيتُنا التحتية هي المعنويات. ماركس واقفاً على رأسه، معيداً هيغل للوقوف على قدميه بأدوات ميكافيللي الذي أسلم على باب خيمة من خيام صلاح الدين.

أَلأنَّ لبنان هو هكذا، يستعصي على الدراسة والإدراك؟ أم لأننا لا نملك من أدوات معرفة لبنان غير هذه الطريقة في التوفيق؟

لا أتورّط بمحاولة الإجابة، بقدر ما أزجُّ نفسي في حيرة: لا أحد يفهم لبنان، لا أصحابه المجازيون، ولا صُناعه، لا مُدمِّروه ولا بُناتُهُ، لا حُلفاؤه ولا أصدقاؤه، لا الداخلون ولا الخارجون، ألأنَّ الواقع المفكَّك لا يُدْرَك، أم لأن الوعي المفكَّك لا يُدْرك...؟.

ولا أُريد جواباً صحيحاً، بقدر ما أُريد سؤالاً صحيحاً.

لم نر من لبنان غير اللغة التي تُشيع فينا غريزة الوجود، وعلاقة قربى رفعها إلى مستوى الخطاب القومي ذلك المصريُّ الكبير عبد الناصر الذي خاطب في سكان هذه القارة المتحولة إلى فسيفساء حاسّة الغياب المرهفة، وسمّى من النهر ضفافاً تُخفي ما في النهر من وحل، وطوائف، ونفايات صليبيين كانت تجدِّد حياتها، في هدوء الظلام، خلف دويِّ الخطاب.. إلى أن انكسر الخطاب فتقدمت بخطابها شبه المشترك.

فيديو..

أن نرى ما تريحنا رؤيته، في لحظة يتحول فيها شرط حياتنا إلى هذه الرؤية المتحدرة من الخطاب الكبير، في محاولة لتحويلها إلى وعدٍ تراجع عن الوعي، فصار ممثلو الأغلبية أقلية محاصرة.

فيديو..

لأن الزمن ليس زمن أنبياء تتحول فيه العزلة إلى بوصلة صواب، والأقلية ـ المترسبة من مشروع الأكثرية ـ إلى هداية.

فيديو..

لأن حزيران المصنوع ليكون نهاية الفكرة العربية لا تحيله الأنظمة، المشاركة في صناعته، إلى انتقام الشارع ليكون بداية البديل، بل لامتصاص ما ينبغي امتصاصه من غضب لا يرد، تُجري أثناءه الأنظمة عملية تثبيت انعطافها نحو سيادة الفكرة الإقليمية، والفكرة الطائفية.

فيديو..

لأن ماركيز صيدا الذي ينتظر إذن البابا بوضع أُخته تحت مسلم،

وإلّا فبنت أُختـه، لا يصلح حليفاً حقيقيـاً ضد الانجليـز الذين يحـاصـرون عكا. .

وفيديو. .

لأن سقوط المركز بالتوقيع على معاهدة تضمن نهاية الحـروب، يأذن بهجوم الأطراف على مركز الموضوع، ونقله من موضوع دعوة إلى موضوع انشقاق وفتنة.

وفيديو. .

لأن اقتسام الساحل والجبل بين العرب والافرنـج، في هذه الشـروط المعـاصـرة لا يـرمي إلى ضمـان احتفـاظ العـرب بمـا تبقّى لهم من قـلاع ومدى، لمواصلة الصراع، بل يرمي إلى منح العدو هدنـة توفـر له إمكـانية تأسيس نماذجه الكفيلة بانتقاله من استثناء إلى قاعدة.

فيديو. .

لأن هذا الضلع من الجزيرة، الضلع المكسور، مـطلوب للمحاكمـة بتهمـة الاعتداء على راحـة العروش بتـرويج كلمـات ممنوعـة التـداول في الأطـراف العربيـة: امرأة، معـارضة، كتـاب، أحزاب، بـرلمان، حـريـة، خنزير، ديمقراطية، شيوعية، علمانية.

وفيديو. .

لأن فلسطين تتطور من وطن إلى شعار ليس للتطبيق بل للتعليق على الأحـداث، ولتـزويق خـطاب الانقـلاب، وحـلّ الأحـزاب، ومنـع زراعـة القمح، واستبدال الكدح بالربح السريع، وإلى تـطوير صنـاعة الانقـلاب، الثقيلة منها والخفيفة، إلى أن يُعْقَد القِران على آخر حفيدات الخليفة. .

وعلى الحدود، تُعلن الحرب على الحدود.

لذلك، كان علينا ألاّ نرى من لبنان ما رأيناه من صناعة الأمـل، وجه البطولة الساطع المتفجر من المدافعين عن يأسهم العظيم أمام أمل الصَدَفة المنغلقـة ومن هجوم بحـر الصحراء على جـزيرة الـروح الصغيرة. أسمـاء الأمكنــة تضيق وتضيق وتنكمش. من الــوطن الممتــد من المـحيط إلـى الخليج إلى ما هو أضيق: شرم الشيخ، جبل الشيخ، الضفة الغـربية لنهـر الأردن، مـدرسة البنـات في نـابلس، حـارة السجعيـة في غـزة، غـاليـري سمعان، شارع أسعد الأسعد في بيروت، فندق طابا في سينـاء، بئر العبـد هنـا، مخيم شـاتيـلا، مستـديـرة المـطار، إلى متـراس أخيـر تكـون بعـده الصحراء أو البحر. . .

□ □ □

لتتقدّسْ أيديكم، أيها القابضون على الحجر وعلى الجمر الأخير. .

لتتقدّسْ أيديكم الرافعة، وحدها، جبالاً من أنقاض الفكرة اليتيمة.

وليتحول ظلكم المحروق إلى رماد عنقاء يجـدِّدكم لتبنوا منـه ومنكم مغارةً لطفل يُولد.

ولتنبت أسماؤكم حبقاً وريحـاناً على سهـل يمتد من خـطاكم، سهل لتهتدي حَبَّة القمح إلى ترابها المسروق؛

أيهـا المشرقـون فينا أقمـاراً يعجنها دم سخيّ ينـادي حُـرّاس القلعـة الهاربين إلى صفوف الأعداء، فلا يجيب سوى الصدى الساخر:

وحدكم!

من آثـار خُـطاكم، الخـطى التي لا تخـطو إلا تحت أو فـوق، سنلُمُّ

الجزر المتطايرة المتنافرة كما يلمُّ الشاعرُ البرق المتناثر من حوافر خيل على صُوّان.

ومن خيمة هي ما يسيل علينا من ريش الصقور سندلُّ القبائل على حدود أسمائها.

.. وحدكم!

فاحموا حدّ النشيد، كما تحمون، مما يثلم القلب في هذه البرّية الضيقة، الضيقة كمدى لا يطلُّ من النافذة..

.. وحدكم!

البحر من ورائكم، والبحر من أمامكم، والبحر عن يمينكم، والبحر عن يساركم، ولا يابسة إلا هذه اليد الممسكة بحجر هو الأرض.

.. وحدكم

فارفعوا مائة مدينة أخرى على هذا الزناد، لتخرج المدن القديمة من اصطبلاتها ومن سلطة الجراد النابت في خيام الفراء الصحراوي..

دلّونا علينا لنفرغ ما فينا من حمولة جثث ليست لنا، ومن ثمر فاسد تدلّى من لغة ليست لنا، ولنتابع المشي على خطانا لا على خطى قيصر.. لصّ الهوية والطريق..

لم يبق لنا من موت إلا موت الموت..

وحدكم،

تحمون سلالة هذا الساحل من اختلاط المعاني، فلا يكون التاريخ سلس المراس، ولا يكون المكان إرثاً يورث.

ولتتقدّس أيديكم أيها القابضون على الحجر وعلى الجمر الأخير.

ـ وداعاً سيدي
ـ إلى أين؟
ـ إلى الجنون
ـ أيّ جنون؟
ـ أيّ جنون. . . فقد صرتُ كلاماً. .

□ □ □

. . مَسّني ما مسّني من حماسة. وواصل الفضاء المحتل، والبحر المحتل، وجبل الصنوبر المحتل قصف الهواجس الأولى وسيرة خروج آدم من الجنة، المتعدد في سيَر خروج لا تنتهي. لم يعد لي وطن، ولم يعد لي جسد، وواصل القصفُ قصف أناشيد المدائح وحوارات الموت المتحركة في دم كالضوء يحرق الأسئلة الباردة. عم أبحث؟ عن امتلاء بالبارود، عن تخمة لغضب النفس. تدخل الصواريخ في مسام جلدي وتخرج سالمة. ما أقواها! ولا أُحسُّ بالجحيم التي يوزعها الهواء طالما أَتَنَفَّسُ الجحيم وأَتَصَبَّبُ جهنم. وأُريدُ أن أُنشد. نعم، أن أُنشد لهذا النهار المحروق. أُريد أن أُنشد. أُريد أن أجد لغة تحول اللغة إلى حديد للروح، إلى لغة مضادة لهذه الطائرات. . الحشرات الفضية اللامعة. . أُريد أن أُنشد. أُريد لغة تسندني وأسندها، وتشهدني وأشهدها على ما فينا من قوة الغلبة على هذه العُزلة الكونية، وأمشي. .

. . أمشي لأراني ماشياً، ثابت الخطوة، حُرّاً حتى من نفسي. في منتصف الشارع، منتصف الشارع تماماً، تنبح عليّ الوحوش الطائرة. تبصق نارها ولا أُبالي. لا أسمع إلا وقع خطاي على الاسفلت المحفور. ولا أرى أحداً. عمّ أبحث؟ لا شيء. لعلّ عناد التحدّي الذي يخفي

خوف الوحدة، أو الخشية من الموت بين الأنقاض هو ما يُمسك بخطاي ويضرب بها الشوارع النائمة. لم أر بيروت، من قبل، في مثل هذا النوم الصباحي. ولأول مرة أرى الأرصفة، أرصفة واضحة. ولأول مرة أرى الشجر، شجراً واضحاً، بجذوع وأغصان وأوراق دائمة الخضرة. هل بيروت جميلة في حدّ ذاتها؟ كانت الحركة، والحوار، والزحام، وضوضاء التجارة تخفي هذه الملاحظة، وتحوّل بيروت من مدينة إلى مفهوم، ومعنى، ومصطلح، ودلالة. كانت تطبع الكتب، وتوزع الصحف، وتعقد الندوات والمؤتمرات لتعالج قضايا العالم ولا تنتبه إلى ذاتها. كانت مشغولة بمدّ لسان السخرية لما حولها من رمل وقمع. كانت ورشة حرية. وكانت جدرانها تحمل موسوعة العالم الحديث. وكانت مصنع ملصقات. وقد تكون هي أول مدينة في العالم طوّرت صناعة الملصقات إلى مستوى الجريدة اليومية. ولعلّ قدراتها التعبيرية المتشكلة من تنوع، وموت، وفوضى، وحرية، وغربة، وهجرة، وشعوب، قد امتلأت وفاضت عن جميع أشكال التعبير المعروفة، فوجدت في الملصق ما يستوعب فائض التعبير عن اليومي، حتى أصبح الملصق لفظة دارجة في القصائد والقصص ليشير إلى خصوصية. وجوه على الجدران، شهداء طازجون خارجون للتو من الحياة ومن المطبعة، موت يُعيد إنتاج موته. شهيد يزيح وجه شهيد آخر عن الحائط ويجلس مكانه إلى أن يزيحه شهيد جديد أو مطر. وشعارات تمحو شعارات، تتبدل، وترتب أولويات الحماسة والواجبات الأممية اليومية. كل ما يحدث في العالم يحدث هنا، انعكاساً تارة، ونموذجاً تارة، وقد يتشاجر مثقفان في مقهى باريسي، فينقلب شجارهما الكلامي إلى اشتباك مُسَلَّح هنا. لأن على بيروت أن تتضامن أو تتزامن مع كل جديد، ومع كل قديم يتجدّد، ومع كل حركة جديدة ونظرية

جديدة. سينما ثورات سريعة الدوران. فيديو للتطبيق المباشر. القائد الجديد أو النجم الجديد، في أي مجال، مرشح ليكون قائدها أو نجمها. تطفح جدرانها بالصور والكلمات، ويلهث المارّة وراء وعي يتبدّل. لذا، فإن أعمار النجوم والقادة قصيرة، لا لأن الجمهور هنا سريع الضجر، فالجمهور ليس هنا، بل لأن السباق يجري على النمط الأميركي ولو كانت أهدافه معادية لأميركا، فهنا مندوبون دائمون لأيّ وعي جديد، ولأية نغمة جديدة، ولأية طفرة جديدة، من الولاعة المتدلية من صدر فتاة الجينز دليلاً على الإفراط في اليسارية، إلى حجاب يغطي الوجه واليدين دليلاً على الأصالة، إلى تلقف كل إشارة تضع كارل ماركس في فهرست الاستشراق، دليلاً على هبوب ريح الشرق، هنا محطة تحويل كونية لكُلّ خروج عن السياق، وتعميمه إلى برنامج عمل لشعب مشغول بتأمين خبزه، ومائه، ويدفن قتلاه...

أمشي في شارع لا يمشي فيه أحد. أتذكّر أني مشيت، من قبل، في شارع لم يمش فيه أحد. وأتذكّر أن أحداً لم يكن معي قال لي:

- دَعْكَ من هذا الحوار. وتعال معي.
- إلى أين؟
- لترى هذا الرجل.
- ماذا يفعل هذا الرجل؟
- يذهب إلى بيته.
- ولكنه يمشي إلى الأمام ويعود إلى الوراء.
- تلك طريقته في المشي.
- إنه لا يمشي. إنه يتأرجح. إنه يرقص.

ـ راقبه جيداً. عُدّ خطواته..

واحـدة، اثنتان، أربـع سبـع تسـع إلى الأمـام.. واحـدة، اثنتـان، ثلاث، سبع، ثمان إلى الوراء..

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ إنـه يمشي. في هذه الـطريقة وحـدها يعـرف الـطريق إلى البيت: عشر خطوات إلى الأمام وتسع خطوات إلى الوراء. أي أنه يتقدم خطوة.

ـ وإذا سرح ذهنه، وأخطأ في العدّ؟

ـ عندها لا يصل إلى بيته.

ـ هل تعني شيئاً؟

ـ لا أعني شيئاً...

□ □ □

.. قريباً من فنـدق «الكافـالييه» نـظرت إلى ساعتي. الشـامنة. هـل صحـا الشاعـر (ي) من النوم؟ من يستـطيع النـوم تحت هذه القـطعـان من الطائرات؟ أثار فضولي أن أعرف كيف يقدر شاعر على الكتابة، كيف يجد لغـة لهذه اللغـة. و(ي) هو الشـاعر صـاحب القصيدة اليـومية، المـرئية، المتأنية، القادرة على التقاط تفاصيل دالّة على جوهر إنساني. هـو الشاعـر القادر على تحريك الفرح من الركام وعلى إيقاظ الدهش. وهو حين يكتب يغنيني عن الكتابة، لأنه يقول نيابة عنا ما نحسُّ بالرغبـة في قولـه. يملأني بشجن يـوقظ صفاؤه فيَّ مـادة الفرح. ومـا دام هذا الشعـر يكتب فلن أجد دليلاً ملموساً على مأزق الشعر. وهو باختصار شاعري. التقيته أول مرة في بغداد. وسرعان ما حاول اغتيالي، لأنه يشرب ما تُيَسّره المائدة من كحـول لا تتجـانس إلا للتشاكس، فهـو لا يعترف بفـروق الكحول. الكحـول هي

الكحـول. ما الفـرق: بيـرة، ويسكي، نبيـذ، عـرق، جنّ، كُلُّهـا تُجنِّن. وحين كان يوصلني في آخـر الليل بسيـارته إلى فنـدق «بغداد» كـان يحاول دفع السيارة، بمن فيها، للسباحة في نهر دجلة لولا استغاثتنا الصاحية. قال ليهدىء من روعنا: لا تخافوا، فـأنا الآن مـوظف في دائرة الـريّ. صحنا: الري؟ قال: الريّ، نعم، الريّ. وأخيـراً انتقل من دائـرة الريّ في بغـداد إلى دائرة الدم في بيروت. كُنّا نحيي أُمسيات مشتركـة في بيروت ودمشق، وفي صور منذ أسابيع، في إحـدى قواعـد المقاتلين. رأيتـه ليلة أمس قرب فنـدق بلازا. تعـرّف عليّ وسط الظلام الكحلي بـواسـطة مصبـاح يـدوي، فصرخ بي: كيف تسير وحـدك بلا حـراسة. قـال: لماذا تقف هنـا؟ قلت: أنتظر سيارة أجرة لأذهب إلى غرفة العمليات.

□ □ □

أنتـظر الشاعـر في ردهة الفنـدق. ولكن، لمـاذا يـطلع الحلزون في وجهي. حلزون طـويل. حلزون لا يكفُّ عن استعـراض رخـاوتـه. يلعب على المقاعد والجدران. يدلق لعابه الأخضر على فتاة تعزف على البيانـو. حلزون يبكي. حلزون يضحك. حلزون يسكر. يدخل الشاشة. يخرج من الشـاشة. يعلِّق بصـره الزائـغ على الـلاشيء. حلزون لا ينـظر. يتهـاوى. يتمـايل. يتـأوه. يتنهـد. يتخلَّع. يتسكـع. حلزون يسيـر على قـدمين من مـطاط يتـأرجـح. ولمـاذا يـطلع الحلزون في وجهي هـذا الصبـاح؟ اللهم احفظنا من بشاعة المنظر!

□ □ □

. . ينزل الشاعر من غرفته مُتّكئاً على جرادة. .

أوف. . أهذه أيضاً. ما الذي جاء بي إلى هذا المكان. نتعانق. أهزّ

على كتفيه لأنفض عنه سموات النعاس. كيف حالك؟ متشائم. هذا يوم عجيب يا أخي. مش معقول يا أخي. لم يتوقف القصف ثانية واحدة. إنهم يحرثون المدينة. أين كنت؟ في شقتي. مجنون.. مجنون يا أخي كيف تنام هناك؟ غداً سأنام هنا.. ولكن أينقصنا أن يُسفر القصف عن حلزون وجرادة؟. ماذا تعني؟. لا أعني شيئاً. عشر خطوات إلى الأمام، وتسع إلى الوراء. النتيجة خطوة إلى الأمام. حسناً! هذا حسن..

حطت جرادة أُخرى، خائفة، على حضني. ارتدتْ عِفّة الخوف من الطائرات لتحتك بما يُحكّ. قلت لها مازحاً وناصحاً: هذا يوم لا نهاية له. عندهم ألف طائرة تستطيع القيام بعشرة آلاف غارة، وإذا واصلتِ الرد على كل غارة بهذا الاحتكاك، فإني سأجف، سأصير رجلاً مثموداً! والتفتُّ إلى الشاعر: قل لي، لماذا تندلع شهوات الفتيات في أسوإ الحالات؟ أهذا هو وقت الحب! ليس هذا وقت الحب. إنه وقت الشهوة الخاطفة. يتعاون جسدان عابران على صدّ موت عابر بموت آخر هو موت العَسَل.

جاء صديقنا الكبير «ف» ليساعدني على رفع الشاعر عن عبارة سقطت تحته: يا أخي مش معقول.

هذا مش معقول. يا أخي هذا شيء غير معقول. اشتبك مع العبارة. خنقها وتكوم فوقها. ساعدني يا «ف» ساعدني على تخليص العبارة من تأتأة «ي». نضحك. كان علينا أن نضحك ونقهقه إلى حد أزعجنا معه فتاة البيانو. قلنا لها: ليس هذا وقت البيانو، ولا الضحك، ولا الشعر. هذا وقت الطائرات. وهذا وقت الحلزون.

هل تكتبان؟ سألنا «ف»..

«ي» يكتب يومياً.. وقرأ لنا إحدى لقطات الكاميرا الداخلية الحسّاسة التي لا يتخلى عنها.

وأنت؟ سألاني.

قلت: إني أختزن حتى الاختناق، وأُثير سخرية الزملاء القائلين: ما جدوى القصيدة.. ما جدواها بعدما تنتهي الحرب. ولكنني أَصرخ في لحظة لا يصل فيها الصراخ. ويبدو لي أن على اللغة ألا تزج بنفسها في معركة أَصوات غير متكافئة. صوتك الخافت يا «ي» أفضل.

ـ ولكن ماذا تكتب؟

قلت: أُتأتىء صرخة:

أشلاؤنا أسماؤنا.. لا.. لا مَفَرُّ
سقط القناع عن القناع عن القناع
سقط القناعُ
لا اخوة لك يا أخي، لا أَصدقاء
يا صديقي، لا قلاعُ
لا الماء عندك، لا الدواء ولا السماء ولا الدماء ولا الشراعُ
ولا الأَمام ولا الوراءُ
حاصر حصارك.. لا مَفَرُّ
سقطتْ ذراعك فالتقطها
واضربْ عدوّك.. لا مَفَرُّ
وسقطتُ قربك، فالتقطني
واضرب عدوك بي، فأنت الآن حُرٌّ
حُرٌّ

وحُرُّ . .
قتلاك أو جرحاك فيك ذخيرة
فاضرب بها. اضرب عدوك. . لا مَفَرُّ

أَشلاؤنا،أَسماؤنا . أَسماؤنا أَشلاؤنا
حاصِرْ حصارك بالجنون
وبالجنون
وبالجنون
ذهب الذين تحبهم، ذهبوا
فإمّا أن تكون
أَو لا تكون
سقط القناعُ عن القناع
سقط القناعُ، ولا أَحدْ
إلّاكَ في هذا المدى المفتوح للأَعداء والنسيان
فاجعل كُلَّ متراس بَلَد
لا . . لا أَحد
سقط القناعُ
عرب أَطاعوا رُومهم
عرب وباعوا روحهم
عرب. . وضاعوا
سقط القناعُ
سقط القناعُ
. . سألنا «ف»: إلى أَين ستخرجان؟

قال «ي»: إلى عدن . .
- وأَنت؟ سأَلني
قلت: لا أَعرف . .

صمت. صمت من حديد. كنا ثلاثة، فصرنا واحداً في ما ينهار حولنا من عالم. كأننا نعتني بمواد قابلة للانكسار ونحن نستعدُّ لاستيعاب عملية انتقال الواقع، برمته، إلى ذكريات تتأَلّف على مرأى منّا. ونحن نبتعد لنشهد صيرورتنا إلى ذكريات. نحن الذكريات. ابتداءً من هذه اللحظة سيتذكر بعضنا البعض كما نتذكر عالماً بعيداً تلاشى في زرقة صارت أشدّ زرقةً مما كانت عليه. سنفترق في أَوج اللهفة. ونحن الثلاثة نعرف الحقيقة: سنخرج. ونعرف قسوة أَقسى لا يجرؤ أَحد على أن يُرى وهو يراها: أن الناس معنا لأَننا خارجون.

قلت: لن أخرج، لأنني لا أَعرف إلى أَين أخرج. ولأَنني لا أَعرف إلى أَين أَخرج، فلن أَخرج.
وسأَلت «ف»: وأَنت؟
قال: أنا باقٍ. أَنا لبناني. وهذه بلادي. إلى أَين أَذهب!
خجلت من سؤالي، ومن فرط ما صارت بيروت نشيدي. . . ونشيد مَنْ لا وطن له! . . . خجلت من شدّة التباس الفكرة.

□ □ □

«. . في ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر. فاجتمعت إليه جموع كثيرة حتى أنه دخل السفينة وجلس. والجمع كُلُّه وقف على الشاطىء فكلمهم كثيراً بأَمثال قائلاً هو ذا الزارع قد خرج

لِيزرع. وفيما هو يزرع سقط بعضٌ على الطريق، فجاءت الطيور وأكلته. وسقط آخر على الأماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أَرض. ولكن لما أَشرقت الشمس احترق. وإذ لم يكن له أَصلٌ جفّ. وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه. وسقط آخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمراً...».

«... ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور صيدا. وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة إرحمني يا سيّد يا ابن داود، ابنتي مجنونة جداً. فلم يُجبها بكلمة. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصيح وراءنا... فأجاب وقال لم أُرسَل إلاّ إلى خراف بيت اسرائيل الضالّة. فأَتت وسجدت له قائلة يا سيّد أعنّي. فأَجاب وقال ليس حسناً أَن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب. فقالت نعم يا سيّد. والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أَربابها. حينئذٍ أجاب يسوع وقال لها يا امرأة عظيمٌ إيمانك. ليكن لك ما تريدين. فشُفيت ابنتها من تلك الساعة».

[إنجيل متّى]

□ □ □

.. وفي فندق الكومودور، معقل الصحافيين الأجانب، يستجوبني كاتب صحافي أميركي: ماذا تكتب أيها الشاعر في الحرب؟

- أكتب صمتي.

- هل تعني أن الكلام للمدافع؟

- نعم. صوتها أعلى من أي صوت.

ـ ماذا تفعل إذن؟

ـ أَدعو إلى الصّمود.

ـ وهل ستنتصرون في هذه الحرب؟

ـ لا. المهم أَن نبقى. بقاؤنا انتصار.

ـ وماذا بعد ذلك؟

ـ سيبدأُ زمن جديد.

ـ ومتى تعود إلى كتابة الشعر؟

ـ حين تسكت المدافع قليلاً. حين أُفجر صمتي المليء بجميع هذه الأَصوات. حين أَجد لغتي الملائمة.

ـ أَليس لك من دور؟

ـ لا. لا دور لي في الشعر الآن. دوري خارج القصيدة. دوري أن أكون هنا، مع المواطنين، ومع المقاتلين.

.. لقد وجد بعض المثقفين وقت الحصار ملائماً لتصفية حساباتهم الصغيرة. فشرعوا أَقلامهم السّامة في صدور زملائهم. وعبثاً كنا نصرخ: ما لكم وهذه الصغائر. فليس أحد من الكتّاب هو الذي يحاصر بيروت. وليس تقصيرهم أو هروبهم هو الذي يهيل البنايات على سكانها. وفي أسوإ الأَحوال ليست كتابتهم هذه أدباً. وليست مدافع فعّالة مضادة للطائرات في أفضل الأَحوال. كلا ـ يقولون: هذا هو المحك الأول والأَخير لثورية الكاتب والشاعر. فإما أن تولد القصيدة الآن، وإما أن تحرم من حقّها في الولادة. وكنا نسخر: ولماذا أَذنتم لهوميروس أن يكتب الإِلياذة والأُوذيسة؟ ولماذا سمحتم لأسخيليوس ويوربيدوس وأرسطوفان وتولستوي وغيرهم؟ ليس ردُّ الفعل واحداً ـ أَيها الكتّاب ـ فمن يستطيع

الكتابة الآن فليكتب. ومن يستطيع الكتابة بعد الآن فليكتب. وإذا أذنتم لي بأن أُبدي رأيي - ودون اتهام - فسأعبر عن ظنّي بأن الجرحى والعطاشى والباحثين عن الماء والخبز والمجإ لا يطالبونكم بالغناء، والمقاتلين لا يكترثون بغنائكم. غنوا إذا شئتم. أو فاصمتوا إذا شئتم. فنحن هامشيون في الحرب. وفي وسعنا أن نقدم خدمات أُخرى للناس، فإن تنكة من الماء تساوي وادي عبقر. المطلوب منا الآن هو الفاعلية الإنسانية لا الجمالية الإبداعية. فلْتُوقفوا عمليات الاغتيال: وماذا لو انهارت أعصاب الناقد وخرج من بيروت؟ وماذا لو عجز الكاتب المسرحي عن اجتياز الشارع من الخوف؟ وماذا لو أضاع الشاعر إيقاعه قليلاً؟ أَلأنّ الناقد لم يُعْجَبْ برواياتكم وقصائدكم تضربون عليه الحصار وتقصفونه بالتشهير؟

لقد اعتادت الأوساط الأدبية العربية أن تطرح سؤال الشعر في سياق الحرب المندلعة، استجابةً للراسب الثقافي فينا الذي يربط صيحة الحرب بحماسة الشعر، باعتبار الشاعر معلقاً على الأحداث، حاضّاً على الجهاد، أو مراسلاً حربياً. في كل معركة يقولون: أين القصيدة؟ لقد اختلط مفهوم الشعر السياسي بمفهوم الحدث، معزولاً عن السياق التاريخي..

وفي هذه اللحظة المحددة، حيث تحرث الطائرات أَجسادنا، يطالب المثقفون المتحلقون حول جسد غائب بقصيدة تُعادل قوة الغارة أو تقلب موازين القوى على الأقل.. إذا لم تولد القصيدة «الآن» فمتى تولد؟ وإذا وُلدت فيما بعد، فما هي قيمتها «الآن». سؤال بسيط ومعقّد يحتاج إلى جواب مُركّب كأَن يتاح لنا القول إن القصيدة تولد الآن: تولد في مكان ما، في لغة ما، في جسد ما، ولكنها لا تصل إلى الحنجرة والورق. سؤال

بريء يحتاج إلى جواب بريء لـولا أنه مليء ـ في هـذه الجلسة ـ بـالرغبـة في اغتيال الشاعر الذي يجرؤ على الإعلان بأنه يكتب صمته.

ومن المثير للمرارة أن ننتـزع من زمن الغارات هـذا الوقت للثرثرة، وللدفاع عن دور الشاعر الذي يستمد خاصيتـه من تاريـخ كتابتـه الشعر في علاقته بتطور الواقع، أمام لحظة يتوقف فيهـا كل شيء عن الكـلام، لحظة تصـوغ فيها الملحمـة الشعبية تـاريخها وإبـداعها الجمـاعي. بيـروت هي الكتـابة الإبـداعية المثيـرة. شعراؤهـا الحقيقيون ومنشـدوها هم مقـاتلوهـا وناسها الذين لا يحتاجون إلى ترفيه وتشجيع على عودٍ مقطوع الأوتـار. هم التـأسيس الحقيقي لكتابـة ستبحث طويـلاً عن المعادل اللغـوي لبـطولتهم وحياتهم المدهشة. فكيف تستطيع الكتابة الجديدة، المحتاجـة إلى كسل، أن تتبلور وتتشكّـل في أوج معـركـة لهـا هـذا الإيقـاع الصـاروخي؟ وكيف يستطيع الشعر التقليدي ـ وكُلّ الشعر تقليـدي في هذه اللحـظة ـ أن يصف هذا الشعر الجديد المختمر في بطن الزلزال؟ صبراً أيها المثقفـون! فسؤال الحياة والموت المهيمن الآن، سؤال الإرادة التي تدفع بـأسلحتها كُلّهـا في هذه الساحة، سؤال الوجود الذي يصوغ شكله المادي والألـوهي، أهمُّ من السؤال الأخـلاقي عن دور الشعر والشـاعر. ومن الـلائق أن نحترم الـرهبـة التي تنشرها هذه الساعات، ساعات انتقال الـوجود الإنسـاني من ضفة إلى أُخـرى، ومن طـور إلى طـور. من الـلائق أن يعـرف الشعـر القـديم كيف يصمت، في خشـوع، أما حضـرة هـذا المـولـود الجـديـد. وإذا كـان من الضـروري أن يتحول المثقفـون أو بعضهم إلى قنّـاصـة، فليحـاولـوا قنص مفـاهيمهم القديمـة وأسئلتهم القديمـة وأخـلاقهم القـديمـة. نحن الآن لا نصف بقدر ما نوصف. نحن نولد تمامـاً أو نموت تمامـاً..

ولكن صديقنا الكبير، الباكستاني فايز أحمد فايز كان مشغولاً بسؤال آخر:

أين الرسامون؟

قلت: أيُّ رسامين يا فايز؟

قال: رَسّامو بيروت.

قلت: ماذا تريد منهم؟

قال: أن يرسموا هذه الحرب على جدران المدينة.

قلت: ماذا دهاك يا فايز؟ ألا ترى سقوط الجدران؟

□ □ □

.. لماذا أرى الطاووس، الطاووس العجوز، يدبُّ على عصا من عاج، مدججاً بمسدسين، مترعاً بالزهور، ثملاً بالهجاء، مفتوناً ببُصاق مُتَوّج؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، سارق الريش الملوّن، يرشيني بابتسامة حانقة، ويغمد خنجراً في نُخاعِي؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، يرمي عليّ رائحة العرق والعرق، ويحاول أن يُقَبِّل حذائي، ليدس لي قبراً تحت الحذاء؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، يشرئبُّ إلى المقعد والجدار، ليطلَّ على قلبي ويسرق حزن الليمون، ويهربه إلى قبطان سفينة لا تصل، ظنّها سفينة نوح ولم تصل؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، مزداناً بحذوة حصان قتيل ظنّها وسام الشرف؟

لمـاذا أرى الـطاووس العجـوز مـدججـاً بمسـدسين: واحـدٍ لقتلي، وواحدٍ لقفاه الجَشِع؟

لماذا أرى الطاووس العجوز؟

لماذا أرى الطاووس؟

لماذا أرى؟

لماذا؟

□ □ □

احتـرق المكتب. قذيفـة بحريـة جعلته مخـزناً للفحم. احتـرق قبل وصولنا بساعات. أَين نجد مكانـاً آخر لنتـابع الثـرثرة: مهنتنـا الخالـدة في الحـرب وفي الهدنـة. الثرثـرة. أَين نتابعهـا: نخـرج، أم لا نخـرج؟ فقـد حسب المثقفون المنصهرون في ورشة الصمود الرائعة انصهـاراً مدهشـاً أن هذا السؤال هو سؤالهم. وحسبوا أن لهم حق الفيتو على القـرار السياسي. وكان بعضهـم يعتقد أن نشرة «المعركـة» هي التي ستحدِّد مصيـر المعركـة. وقرروا أن هذا المنبـر الشجاع هـو الذي سيشهـد للتاريـخ أن المثقفين هم الذين يقودون انعطاف التاريخ. ما أجملهم! ما أجملهم!.

السّاعة الحادية عشرة، وعشرين أَلف قذيفة، وثلاثين ثانيـة. خرجنـا من المكتب المحتـرق إلى فضـاء مشتعـل. السمـاءُ تعـانق الأَرض عنـاقـاً دُخانياً. تتدلّى مثقلة بالرصاص المصهـور، برمـاديّ داكن لا يفتح انغـلاقه العـدميّ سوى لـون برتقـالي تَبُولُـهُ الـطائـرات الفضيـة المـائلة إلى بيـاض الوهج. طائرات رشيقة، خفيفة، تثب على هواء آمن كأن فيه أخاديد.

قال «ز»: هيّا بنـا. قلت: إلى أين؟ قال: نبحث عن أيّ شيء، عن غداء مثلاً. ما الحالة؟ زفت. شروط الخروج مذلّـة، ونحن نناور، نحـاول

أن نشتري الوقت. بأي ثمن؟ بأي ثمن.. بمدافع مضادة للطائرات نفدت ذخيرتها، ببطولة شباب حيّروا العلم العسكري وحيّروا الجنون. إلى متى؟ إلى أن يحدث شيء ما لن يحدث. لم يحدث تغيير. ما زلنا وحدنا. هل سيدخلون بيروت؟ لن يدخلوا بيروت. سيتكبدون خسائر لا يتحملون نتائجها. ولكنهم يحاولون قضم أطراف المدينة. حاولوا عند المتحف وفشلوا. معنويات الشباب عالية، عالية جداً. إنهم شياطين. يائسون من النجدة. يائسون من تحرك العالم العربي. يائسون من التوازن الاستراتيجي، ولذلك يقاتلون بجنون. هل يبلغهم حديث الخروج؟ نعم، يبلغهم ولا يصدقون. يقولون: تلك مناورة، ويقاتلون. ويعرفون أن هذا الصمت الذي يتوِّج العالم يعطيهم منصّة الكلام. دمهم، وحده، هو الذي يتكلّم في هذا الزمن. وماذا سنكتب في «المعركة» أمام حديث المفاوضات والخروج؟ ندعو إلى القتال والصمود. ندعو إلى الصمود والقتال:

«بيروت من الخارج: محاصرة بالدبابات الإسرائيلية وبالشلل العربي الرسمي. بيروت غارقة في الظلام والابتزاز. بيروت تعطش..

ولكن بيروت الداخل، بيروت من الداخل، تعد حقيقتها الأخرى، تمتلك إرادتها. وترفع بنادقها لتحافظ على إشراق معانيها: عاصمة الأمل العربي.

بشعار «إنقاذ» بيروت الجهنمي، السلس، القاتل كالسم الناعم، يُراد لهذا الأمل أن ينتحر في مسادة عربية منقولة عن الذاهبين إلى انتحارهم في أوج انتصارهم. والشرط الوحيد الذي يضعه مبتكرو لفظة «الإنقاذ» هو: الاستسلام. استسلام تاريخ من المعاني المسقيّة بالدم. استسلام كامل الغضب. استسلام كل السلاح. استسلام بلا تكاليف.

ولكن، هل يعرف خبراء صناعة الابتزاز ما معنى هذا اليأس، ما نتائج هذا اليأس؟ لا نقول ابتزازاً مضاداً، ولا نُهدِّد بسقوط الهيكل علينا وعلى أعدائنا وعلى حلفائنا. ولكننا نُشهر حريتنا الوحيدة وشرطنا الوحيد على مائدة المفاوضات: أن نقاتل.

بيروت ليست رهينة. ونحن فيها خلف متاريسنا لا نرهن حياتنا لغير المستقبل، ولتجدد دورة الدم في عروق الأجيال كُلّها. إذ لا خيار لنا إلا الاحتفاظ بشرط حياتنا الحاضر: السلاح. السلاح الذي يعني تجريدنا منه تجريدنا من أداة الوجود، ومن حماية شعلة أوقدناها بغابة من أشجار دمائنا، ومن الاستمرار في إيقاظ القارة العربية النائمة تحت قمع الأنظمة.

إن صمودنا في قلعة بيروت، غير القابلة للتدمير، هو الأداة الوحيدة لتحريك العملاق العربي المتمدِّد ما بين شاطىء محيطين. وهو الأفق الوحيد المطلّ من فوهة بندقية ومن ثقب جزمة مقاتل، ومن جرح يضيء في هذا العصر الأسود.

هكذا.. هكذا نفك الحصار عن بيروت، وعن غضب الملايين..

وهكذا تكون صورة بيروت من الداخل نقيض صورة بيروت من الخارج..»

.. وهكذا كنا نكتب، فماذا نكتب الآن؟

قال «ز» بلا تردد: الكلام إياه. وما هو رأي الناس، أهل بيروت؟ قال: مع الصمود. قلت: مع الصمود حتى الخروج.. هل نستطيع أن نتجاهل ذلك؟ قال: لا نستطيع أن نتجاهل ذلك، ولكن ما العمل؟ ما العمل؟.

□ □ □

صوت يشذ عن الأصوات المألوفة، لا لأنـه أقوى، بـل لأنه مختلف وبعيـد. صوت يسـرق المكـان ويهـرول. صـوت يقصُّ الفضـاء ويُحـدث تجويفاً في الضوء.

هيا بنا. . لم نعبـر طريق الـروشة منـذ أيام. شـارع عريض مهجـور يتوسع من غياب الخطى، كأنه ملكيـة خاصـة للبحر. بنـايات تـدخن. نار تهبط من أعلى إلى أسفـل. حـريق مقلوب. نـوافـذ تشيـخ وتتسـاقط على مهـل. وتصـل إلينـا استغـاثـات الـطوابق العليـا واضحـة جـارحـة. نـاس تحاصرهم النار والانهيارات التدريجية الخارجة من هـول الصدمـة الأولى. رجـال الإسعـاف المـدني كـانـوا هنـاك، يحـاولـون إنقـاذ اللحم البشـري المعجون بالحديد والأسمنت والزجاج.

لا أستطيع ان أشيح بوجهي عن مشهد المكان المجروح. للدم على الأرض وعلى الجدران جاذبيَّةُ الوحشية. لا أستطيع أن أنصرف ولا أستطيع أن أُخمد إحساس العجز. الزحام شديد. يدعونا رجال الدفـاع المدني إلى الانصراف لأننا نعرقل مهمتهم، ولأن الطائرات ستعود لتقصف هذا الحشد الشهيّ. بلّل وجهي مـاء ساخن يبعثـه احتقان الغيظ. شـدّني صـاحبي من ذراعي: هيا بنا، هيا بنا.

أغاروا من جديد. من جديـد أغاروا. مـا هذا اليـوم؟ هل هـو أطول يـوم في التاريـخ؟ نظرت إلى البنـاية المقـابلة، نظرتُ إلى مكتبي الصغيـر نظرة وداع أخير.

□ □ □

موجة من بحر، كنتُ أتابعها من هذه الشرفة، وهي تنكسر على صخرة الروشة الشهيرة بانتحار العُشّاق. .

موجة من بحر تحملُ بعض الرسائل الأخيرة، وتعود إلى الشمال الغربي الأزرق، والجنوب الغربي اللازوردي، ترجع إلى شواطئها وقد طرّزت انكساراتها بالقطن الأبيض. .

موجة من بحر، أعرفها، ألاحقها بالشجن، وأراها وهي تتعب قبل بلوغ حيفا، أو الأندلس. تتعب فترتاح على شواطىء جزيرة قبرص.

موجة من بحر، لن تكون أنا. وأنا، لن أكون موجةً من بحر. .

□ □ □

كم أحببتُ هذا المكان، المهدّد بالتلاشي منذ البداية. ماذا نُهديك؟ نباتات وورد. زهور ونباتات. حوّلتُهُ إلى ما يُشبه العش. أردتُ له أن يكون نصاً من نُصوص المجلة. حروف بُنّيّة مطبوعة على ورق أصفر، ويُطلّ على بحر. أردتُ له أن يكون مزهرية ثابتة على صهوة جواد جامح. أردتُ لهُ شبهاً بالقصيدة. ولكن، لا نكاد نُعلّق لوحة حتى تنفجر سيارة مُفخّخة تحت، وتطيح بكل ترتيب. وما كدت أسند رأسي على مرفق يدي اليُسرى، في انتظار فنجان القهوة، حتى وجدت نفسي خارج المكتب. لقد رفعني دويُّ الانفجار، كما أنا بقلم الحبر والسيجارة، ووضعني سالماً أمام المصعد. وجدتُ وردة على قميصي. وبعد دقيقة حاولتُ العودة إلى المكتب الذي اختفى بابه وتحوّل إلى ساحة من زجاج مكسور وورق متطاير، فتصدّى لي الانفجار الثاني ليبقيني متجمداً قرب المصعد. ردّ الحارس الفتى على الانفجار بطلقات من مسدسه. ماذا تفعل؟ قلت.

قال: أطلق النار. قلت: على م تـطلق النار وفي آي اتجـاه؟ لعلّ أحـداً لم يسـأله هـذا السؤال من قبل، لـذلك استهجنـه، فهكذا يحـدث دائمـا. رد الفعـل الفوري، التلقـائي، وربما الغـريزي، على أي حـدث أو إحسـاس عنيف أو خبـر أو إصابـة كرويـة هو: إطـلاق النـار. مجـزرة جـديـدة على الـروشة: عشـرون قتيلاً آخـر من هذه الحُمَّى الجـديدة: حُمَّى السيـارات المفخخة التي اتقن «الموساد» صناعتها مع عملائه المحليين. لقـد مهدت هذه السيارات لعملية الغزو، مهدت الأرض النفسية لتحـويل هـذا الحصار إلى حادث طبيعي. أحصنة طروادة معاصرة تصهل في الـوعي: لا أمن ولا أمـان في بيـروت الغــربيـة. وكــل سيـارة واقفــة على رصيف هي وعـد بالموت. . فليدخل البرابرة!

□ □ □

مـوجـة من بحـر في يـدي. تتسـرب وتفلت. تنـاور حــول صخـرة صدري، ثم تقترب، ترتخي، وتستسلم. تستعين، لئلا تعود إلى طبيعتها، بشَعْر الصدر. حرٌّ ورطوبة. موجة كالقـطة تقضم تُفَّاحـة. ثم تقبلني بطيش العـابث: يحق لي أن أحبك. يحق لـك أن تحبني. ليس الحب حقـاً، يـا قـطة، وأنـا الآن في تمـام الأربعين. . تنـزوي في ركن: وأنـا نصفُ قَمَـرٍ أُنثوي يتبع ذكـراً. حرّ ورطـوبة. ولكن الجسـد الصغير مُكَيّف: دافىء في الشتـاء. طريٌّ في الصيف. جسـد طازج كشـاطىء بحر جـديـد لم تلمس الحيوانات الصغيرة طحلبه بعد. ينزلق ويبتعد. يحترق ويقتـرب. وتفصلني عنـه رائحة حليب. لم لا نُعلِّق آب على كـرسي؟ لم لا نسبـح في بيـاض النوم؟ وتغطي عينين لامعتين ليلاً. لأنك صغيرة. تزأر: لستُ صغيـرة. أنا نصف قمـر أنثوي يتبـع ذكراً. يتبـع رائحة الهـال. ألا تحقُّ لي السبـاحـة؟

ولكن، ليس هذا البياض بحراً، تغضب وتقضم تفاحةً وأظافر يدها. أجمع الشفتين بأصبعي لتكبرا قليلاً.. لتصيرا قبلة. ها أنت تحبني. إعترف بأنك تحبني. قل لي إنك تحبني. فلماذا لا تشرب ملحي؟ لأن العطش يكسر أناقة روحي. تغضب وتعود إلى الركن، تقرفص في الركن: لا أريد الشِعْر.. لا أحب الشِعْر.. أريد الجسد.. أريد قطعة جسد.. جبان! جبان من أجلِك لا من أجلي. ما شأنك أنتَ بما هو لي. أنا حرة في ما أملك. تقف. تقترب. يخشوشن مُواؤها: أعطني شيئاً ألعب به. أعطني لعبة.. أي لعبة.. قطاً صغيراً مُتَوتراً مشدوداً أمرر يدي عليه برفق إلى أن يسيل لُعَابُهُ على صدري...

كانت الموجة توشك على الغرق، لولا انفجار عنيف هزّ صخور البحر، فطارت الموجة إلى الطريق.. وطرتُ إلى السرير.

□ □ □

... منذ ساعة، لم أتبادل الكلام مع صاحبي «ز». يقود سيارته بلا هدف: أين أنت؟ سأل كلانا الآخر. قلت: أنا أعرف أين كنت. قل الحقيقة، أما كنت هناك تفعل أمراً إذاً مع زوجة الطيار؟ اندهش: كيف عرفت؟ قلت: لأنني عائد من أمر مشابه. لهذا عرفتُ إلى أين يأخذنا الموت..

قال: آن لنا أن نأكل. قلت: السردين مرة أخرى؟ قال: أي شيء. لم يكن هذا الـ«أي شيء» أيّ شيء. فجأة أوقف سيارته وصاح: خروف مذبوح. كنا في أول شارع الكومودور القادم من الروشة. عرفنا البائع. لم يكن جزاراً. كان صانع جنازات. يلتصق بأي قائد في أية جنازة ليظهر في المشهد والصورة. قلت: كم في ظاهرتنا من مفارقات. ومن حسن حظي

أني لستُ كاتباً مسرحياً لئلا أكتب عن الجانب الآخر للصورة. هل تعرف أن عين الكاتب سلبية، كما أن أذن القائد سلبية. تفتنها المفارقة الجارحة هنا والنميمة هناك. لقد شاعت النميمة في حياتنا بشكل مُدَمر. وكانت مصاحبة لظاهرة التضخم الذاتي، لتمدُّد الجسد وانكماش قلق السؤال. فُتحت مكاتب بأكملها، مكيفة الهواء، صالوناتٍ للنميمة وبثّ الشائعات. وازدهرت تجارة الشهداء عند بعض التنظيمات الصغيرة: ما زلنا في حاجة إلى عشرين شهيداً لنملأ القائمة! وصراع مسلح على شهيد مجهول التنظيم. وإعدام مقاتل رفض إطلاق الرصاص على صديق له ينتمي إلى تنظيم آخر، فألقوا بجثته في بئر مهجورة إلى أن عثرت عليها العرّافة. و. .

قاطعني «ز»: سأريك الليلة لعبة الكاميرا والظل. .

قلت: لا أريد.

قال: أين سنأكل. نحتاج إلى فحم وإلى بناية شبه آمنة. دهشنا حين رأينا السماء زرقاء صافية لا تعكرها أية طائرة. منذ دقيقة لم تمر الطائرات. هل تعبوا؟

امتلأت الشقة الآمنة في البناية، شبه الآمنة، في ساقية الجنزير بالأصدقاء الجياع. خرجت الناس من الملاجىء. لا طائرات. . لا طائرات. قال أحدهم: أين كُتُبُ باختين؟ رد آخر: لقد حملها الناقد ـ وهو ساكن الشقة ـ ورحل. حاول البعض أن يُشَهِّر. قال آخر: كفى، فنحن في حاجة إلى فلسطيني حيّ، يهتم بالماركسية وعلم اللغة. اعتبروا ذلك فاتحة نميمة وتأهبوا، لكن عاصفةً من الطائرات هبّتْ علينا لتنقذ الناقد الغائب وترمينا إلى الشارع.

. . وهذا الصوت لا نعرفه من قبل. خفيض، بعيد، عميق، سريّ، كأنه صاعد من جوف الأرض، كأنه صوت القيامة المهيب. شعرنا جميعاً ـ وقد صرنا خبراء في علم الأصوات القاتلة ـ بأن شيئاً غير عادي، في هذه الحرب غير العادية، قد حدث. وبأن سلاحاً جديداً قد جُرِّب. متى ينتهي هذا اليوم الطويل؟ متى ينتهي لنعرف إن كنا أحياء أم موتى!

قال الحامل فخذ الخروف: ماذا نفعل بفخذ الخروف؟ تجاهلنا سؤاله الجشع. لكنه ألح بالسؤال السخيف، ونحن مشغولون بالعثور على ما يَلُمُّ أشلاءنا. . ألح حتى قلت له: خذ هذه اللحمة إلى أقرب ملجإ، أثقبها. وانكحها. وخلِّصنا منها ومنك!.

ولكن ذلك الصوت البعيد حرَّك فينا قلق الغابات الأولى السحيقة. مشيت أنا و «ز» وراء مخاوفنا. كانت «حديقة الصنايع» تشهد أحد مظاهر يوم الحشر. مئات الخائفين يحيطون بتابوت حجري ضخم. الوجوم يحمل ثقل المعادن تحت شمس محجبة بجميع ألوان الرماد. نندس بين الحشود لنجد مكاناً للتطلع خلف الأكتاف المتزاحمة، خلف السياج البشري المشدود على خوف وغضب، فنرى:

بناية ابتلعها قاع الأرض.

اختطفتها أيدي الوحش الكوني المتربِّص بالعالم الذي ينشئه الإنسان على أرض لا تطل إلا على شمس وقمر وهاوية. . ليوقعه في حفرة لا قاع لها، حفرة ندرك على حافتها أننا لم نتعلّم المشي، والقراءة، واستعمال اليد، إلا لنصل إلى نهاية ننساها، ننساها لنتابع البحث عن مُبرِّر لهذه الملهاة، لنكسر خيط العلاقة بين البداية والنهاية، لنتوهم أننا استثناء الحقيقة الوحيدة.

ما اسم هذا الشيء؟

قنبلة فراغية، تحفر ما تحت الهدف فراغاً هائلاً يُجرِّد الهدف من قاعدة يجلس عليها، فيمتصه الفراغ ويحوله إلى مقبرة مدفونة، بلا تعديل ولا تغيير. وهناك، تحت، في الحيِّر الجديد، يواصل الشكل الاحتفاظ بشكله. ويواصل سكان البناية الاحتفاظ بهيئاتهم السابقة، وبآخر أشكال حركتهم المختنقة. هناك، تحت، تحت ما كان تحتهم قبل ثانية. يتحولون إلى منحوتات من لحم، ولكن لا حياة فيه حتى للوداع. فمن كان نائماً يظل نائماً. ومن كان يحمل طبق القهوة يظل حاملاً طبق القهوة. ومن كان يفتح النافذة ظل يفتح النافذة. ومن كان يرضع من ثدي أمه ظل يرضع من ثدي أمه. ومن كان نائماً على زوجته ظل نائماً على زوجته.. ولكن الذي كان واقفاً على سطح البناية، بالمصادفة، استطاع أن ينفض الغبار عن ثيابه وأن يهبط إلى الشارع، من غير حاجة إلى استعمال المصعد، فقد سُوِّيت البناية بمستوى سطح الأرض. لذلك بقيت العصافير، حيةً، في أقفاصها الجالسة على السطح.

لماذا فعلوا ذلك؟ القائد كان هنا... وغادر منذ قليل. هل غادر حقاً؟ لقد نقله سؤالنا الخائف من أب إلى ابن. ولم نجد وقتاً لمحاكمة السؤال: وماذا لو كان هنا، فهل يُبرِّر ذلك لهم إبادة مائة إنسان؟ كان سؤال آخر يشغلنا: هل نجا من محاولة اغتياله بالطائرات وبأحدث سلاح: القنبلة الفراغية؟ كان أمس يلعب الشطرنج أمام الكاميرا الأميريكية ليدفع بيغن إلى مزيد من الجنون، وليحرمه من لياقة الشتيمة السياسية واستبدالها بالشتيمة الإنسانية «هؤلاء الفلسطينيون ليسوا بشراً. إنهم حيوانات تدبُّ على اثنتين». كان عليه أن يجردنا من الصفة الإنسانية ليبرر قتلنا، فإن قتل

الحيوانات ـ إذا لم تكن كلاباً ـ ليس محرماً في الشريعة الغربية. كان بيغن يستعيد تاريخ جنونه وجرائمه، فقد ظن أن جنوده، صيادي هذه الحيوانات، يقومون بنزهة صيد، فألقيت في وجهه مئات التوابيت المرفوعة على الأكف تصرخ: إلى متى؟ ولسنا بشراً لأننا لم نسمح له بدخول عاصمة عربية. وهو لا يستطيع أن يصدق أن البشر هم الذين يحولون دون تحول الخرافة إلى محكمة مطلقة لمحاكمة كُل القيم وكل البشر، في كل زمان وفي كل مكان: محكمة مطلقة وأبدية. لذلك أحال طبيعة من يقاومه إلى طبيعة غير بشرية، إلى طبيعة حيوانية، بعدما أغلقت عليه خرافته جميع منافذ سؤال ممكن: مَن الحيوان؟ لقد انقضت على حلمه، وعلى حلم يقظته، أشباح من أبادهم في دير ياسين، وغيَّبهم عن المكان والزمان، غيبهم ليشترط حضوره، في المكان والزمان، بذلك الغياب. ولكن تلك الأشباح تحاصره في بيروت وقد استعادت لحمها وعظمها وروحها استعادة بطولية. عاد الشبح من الضحية إلى البطل. وبين الشبح والبطل حُوصر نبي الكذب بهوس أقعده عن الاستعانة بفصول من التوراة كانت قادرة على أن تكتب، وحدها، تاريخ البشر..

□ □ □

.. «وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة. فتكون المدينة وكُل ما فيها محرماً للرب. راحاب الزانية فقط تحيا هي وكُل من معها في البيت لأنها خبأت المُرْسَلَين اللذين أرسلناهما. وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا تحرموا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محلّة إسرائيل محرمة وتكدروها. وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب وتدخل في

خـزانة الـرب. فهتف الشعب وضربـوا بالأبـواق. وكان حين سمـع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عـظيماً فسقط السـور في مكانـه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرَّموا كل ما في المـدينة من رجـل وامرأة من طفـل وشيخ حتى البقـر والغنم والحمير بحـد السيف. وقـال يشـوع للرجلين اللذين تجسسـا الأرض أدخـلا بيت المـرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حلفتما لها. فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها وإخوتها وكل مـا لها وأخـرجا كـل عشائرها وتركوهم خارج محلة إسرائيل. وأحرقوا المدينة بـالنار مـع كل مـا بها. إنما الفضة والذهب وآنيـة النحاس والحـديد جعلوهـا في خزانـة بيت الرب. واستحيا يشوع راحاب الزانية وبيت أبيهـا وكل مـا لها. وسكنت في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم. لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكي يتجسسا أريحا. وحلف يشوع في ذلك الوقت قائلاً ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة أريحا».

[سفر يشوع]

□ □ □

. . وكان القائد يلعب الشطرنج. لقد أحسن التلاعب بأعصاب بيغن المتدلية كأسلاك الكهرباء على مزبلة الأوزاعي. كان الرجل المحـاصر في بيروت يحاصر، على رقعة الشطرنج، مـا لا يفصح عنـه. كان يحـاصر في قراءتنا الخاصة أكثر من ملك وقف خارج اللعبة، ويحاصر أكثر من رقعـة. كان يخاطب الكناية. ويؤجل إذاعة خطب التأبين المليئة بالـدموع الملكيـة والجمهورية والجماهيرية المعدة منـذ شهر، منـذ طمأن التقـدم الإسرائيلي خـطباءنـا الرسميين إلى مسـافة الغـزو المقترح، المبـارك بصمت جليـل،

لحماية أمن الجليل من مدى الشوق المسلح الذي يحمله أبناء الجليل إلى أرض الجليل.

هل كان هنا منذ قليل؟ هل خرج من هنا؟

رأيت أحد مرافقيه الذين لا يكذبون عليّ، فازددت قلقاً. همس في أذني: إنه ليس هنا. لقد غادر المكان، وأضاف: وعليك أنتِ أيضاً أن تغادر فوراً، هذا الزحام يغري صيادي الجو بغارة أخرى..

كان هذا الشاب هو الذي عثر عليّ، قبل أيام، في أحد المكاتب وهمس في أذني: تعال معي! فهمت الإشارة، ولم أسأل إلى أين أنا ذاهب. توقعت كل شيء إلا أن أجد نفسي، وجهاً لوجه، أمام هذا الرجل ذي الملامح الألمانية جالساً مع القائد. قال لي: هل تتذكرني.. أنا أوري. غضبت. ولكنني قلت مازحاً: ماذا.. هل دخلتم بيروت، أم وقعت في الأسر؟ قال: لا هذا ولا ذاك، جئت من الأشرفية لأجري مقابلة صحفية مع السيد عرفات. غضبت أكثر ولم أعلق. بيروت مليئة بمندوبي كل الصحف العالمية. أَ مِنَ الضروري أن يجري هذا الحوار مع هذا الصحفي في هذا الوقت؟ لكل مقام مقال. وهذا المقام ليس لهذا المقال. ولكن لعرفات نظرة أخرى إلى الإعلام. فربما أراد أن يوصل رسالة مباشرة، وربما أراد أن يُمَرِّغ بيغن في مزيد من الجنون. كان أبو عمار أهدأ من الرسالة التي شاء إبلاغها للرأي العام الإسرائيلي المضطرب. حين سأله الصحافي إلى أين سيخرج حين يخرج من بيروت؟ أجاب بلا تردد: سأذهب إلى بلادي. سأذهب إلى القدس. لم أتأثر بهذه اللغة بقدر ما تأثر بها الإسرائيلي وأغرورقت عيناه بدموع الخجل. وأضاف أبو عمار: لم لا؟ لم لا أذهب إلى بلادي؟ لماذا يحق لك أن تذهب إلى بلادي ولا

يحق لي أن أذهب إلى بــلادي؟ سـاد صمت، وانقــطع الحـوار. ازدادت المصورة ومساعـدة الصحافي، تحـديقاً بـوجه العـدو الأسطوري. سـألتني إحداهما: أين كوفيته الشهيرة؟ قلت لها: في كل مكان. ولكنه يرتدي الآن القبعـة العسكريـة لأنه يحـارب. ازدادت التصاقـاً به. فقلت هـل أعجبـك الرجل؟ إنه عازب. قالت: أعجبني كثيراً. .

أمـا أنا، فلم تعجبني المقـابلة، ولا خِفَّةُ صـاحب الشقـة الـذي زج بأفراد عائلته في عدسة الكاميرا الإسرائيلية لا لشيء. . إلا ليرى أهله هناك صورة سعادته هنا! قلت لنفسي: من واجبنا أن نعرف لمن نشتـاق: للبلاد، أم لصورتنا خارج البلاد، أم لصورة شوقنا للبلاد داخل البلاد!

□ □ □

أين «س» ديك الحي الفصيح؟ عاشق المسدسات، واللغة، واللحم المُعلن. لم أره منذ يومين. هل وجد طعاماً وماء؟ كان هذا هاجسي. ومنذ تبنيته كان نـادراً ما يتكلم معي حين نكـون وحيدين فلعله صـدق أني أبوه. تـرك الحي الذي كـان يسكنه قبـل الحصار وجـاء إلى هنا ليقيم مـع شـاب لبنـاني سريـاني الأصل. أين السـرياني وأين الكـردي؟ تصادقـا منذ اليـوم الأول للحصـار. أحدهمـا متوتـر كعضلة وثانيهمـا بـارد كقمـر، كـان «س» يبحث عن «ج» وكـان «ج» يبحث عن اختفـاء يـوحي بـأنــه شهيـد. وحين يلتقيان يشتم أحدهما الآخر، ثم يخرجان إلى شـوارع الحمراء، مـدججين بكامل السلاح والامتلاء، كـأنهما يحـرسان الهـواء من الاختراق ومن ثـورة مضادة. أحببت «س» منذ التقيته من سنين، مستنفراً ضد مجهول. يخجـل من الكلام ولا يتدخل فيه إلا ليتوتر. حاسم صارم ولا يسـاوم على شيء أو رأي. لا يقول إلا للورق الموضـوع على وسادة مـا فيه من عـالم عجائبي،

فنتـازي، مترع بـالفصاحـة. ولا أعرف حتى الآن متى يبـدأ فيـه الـروائي، السـارد، ومتى ينتهي الشاعـر. صفع الحيـاة الثقـافيـة البيـروتيـة بـانفجـار مفاجىء. ولكنه يدافع عن كتابته بقبضتـه وشراستـه، لأنه لا يؤمن بـالحوار بين المثقفين ويعتبره ثرثرة. يأخذ مسدسـه وعضلاتـه المزهـوة ويذهب إلى المقهى المنـاسب ليتربص بصغـار النقاد في الصفحـات الثقـافيـة ويؤدبهم على مـا كتبـوا ضـده. قلت لـه ذات مـرة: هكـذا كـان يفعـل فـلاديميـر مایاكوفسكي بنقاده في شارع غوركي. قـال: هذا هـو نقد النقـد الوحيـد. كان «س» مبتهجاً بالحرب، ففيها يتجلى مكبوتُ عنفـه ويحالف الفـوضى. فيها يطلق أعنة جياده ويشهر حوافـر نشيد لا غبـار حولـه سوى الـرصاص. وفيها يعود إلى عصـور الجبال البعيـدة، وإلى نايـات ترقّص البعيـد، وإلى الفرسان وقرقعة الخيلاء، وبهاء الفتوة الأولى. وباختصار: فيها يجـد ميدان الرياح التي تمتشقه سيفاً طـازجاً للمبـارزة مع أعـداء مَرّوا. ولا يفهم. . لا يفهم أبداً لماذا يكتب الكُتّاب في الحرب. من يـأبه بهم في لحـظة القوة؟ يضرب على مسدسه ويتوعـد: سننتصر. . سنعفـر أنوفهم في التـراب. لم يكن يعـرف إن كان سينتصـر حقاً أم لا، فهـو وَلَد المعـارك الخاسـرة. وَلَد ضد الحساب. ما يهمه هو التحدي والمبـارزة. كان «س» يقف في منـطقة وسـطى بين دون كيشوت وسـانشو، يحيـل الأعداء إلى نمـاذج في متنـاول اليد. يمتلىء حماسة فيتكور ويستطيل ويتـوتر ويضـرب أي شيء ثم يسلط على نفسه حكمة «ج» المتروي، الباحث عن الفلسفة في الشعر والمعـادي للغنـائية. ووجـد «س» «ذات الجمال المنقـطع النـظيـر» في غيـاب المـاء واللحم والنساء. إحذر يـا «س» فهي من صناعـة جدك دون كيشـوت، من سلالة السحالي التي تظهر في القيظ والهجير، في أخاديد النفس المتشققة من العطش. وصوتها صوت النبات اليابس في بـرية الأطـلال. لكنه قـطع

شوطاً، لا تراجع عنه، في عملية الإحالة الذاتية المقطوعة عن حقيقتها، وتوغل في الملهاة، ليحقق ما ينقص الفروسية: امرأة! أين «س» الآن؟ هل اصطادته الشظايا، أم اصطادها ليهديها إلى «ذات الجمال المنقطع النظير»؟

□ □ □

القنبلة الفراغية. هيروشيما. مطاردة رجل بالطائرات. فلول الجيش النازي في برلين. احتدام الخلاف الشخصي بين بيغن ونبوخذنصر. عناوين تخلط الماضي بالحاضر. وتدفع الحاضر إلى الهرولة. غد يباع في أوراق اليانصيب. قدر إغريقي يتربص بأبطال صغار. تاريخ مشاع، لا أهل له، مفتوح لمن شاء أن يرث. في هذا اليوم، في ذكرى قنبلة هيروشيما يجربون القنبلة الفراغية في لحمنا. تنجح التجربة..

أتذكر من هيروشيما المحاولةِ الأميركية لدفع هيروشيما إلى نسيان اسمها. وأعرف هيروشيما، زرتها منذ تسع سنين. وفي إحدى ساحاتها تكلمت عن ذاكرتها. من يُذَكِّر هيروشيما بأن هيروشيما كانت هنا. سألتني المترجمة اليابانية إن كنت قد شاهدت الشريط السينمائي الشهير. قلت: وفي وسعي أن أحب امرأة من سدوم، لأحب، أو لألعب. في وسعي أن أحب جسداً يقتلني حُرّاسه خلف النافذة. قالت: لا أفهم. قلت: هي خواطر شعرية.. ولكن أين هيروشيما؟ قالت: هيروشيما هنا. أنت في هيروشيما. قلت: لا أراها فكيف غطيتم اسم جسدها بالأزهار؟ الآن الطيار الأميركي بكى فيما بعد، ضغط على زر صغير ولم ير إلا سحابة. وحين رأى الصور، فيما بعد، بكى. قالت: تلك هي الحياة. قلت: ولكن

أميركا لم تبك ولم تغضب على نفسها. غضبتْ من التوازن. هيروشيما غداً. . هيروشيما هي الغد.

لا شيء في متحف الجريمة يدل على اسم القاتل: من هنا جاءت الطائرة، من قاعدة ما في الباسفيك. تواطؤ أم خنوع؟ أما الضحية فلا تحتاج إلى أسماء: هياكل بشرية مجردة من ورق الشجر، أغصان عَظْميَّة للشكل، أشكال للشكل. بعض الجدائل الدالة على امرأة كانت هناك. كتابات على الجدران تشرح درجات التدرج في القتل: من الحريق إلى الدخان، إلى السموم، إلى الإشعاع. تدريبات أولى على قتل كوني أشمل. تخطيط أولي للنهاية. هكذا تبدو الآن «ثروة» قنبلة هيروشيما التدميرية، سلاحاً ذرياً بدائياً، يسمح للخيال العلمي بأن يكتب سيناريو لنهاية العالم: انفجار هائل، انفجار عظيم، يشبه بداية تكون الكرة الأرضية، بفوضاها المنظمة: جبال، وديان، سهول، صحارى، أنهار، بحار، منحدرات، بحيرات، تجاعيد، صخور، وما يتبعه من تنوعات جميلة في أرض تمجدها المدائح الشعرية والصلوات الدينية. بعد الانفجار العظيم يشب حريق هائل يلتهم ما يستطيع التهامه من طعام النار: البشر والشجر والحجر، والمواد القابلة للاحتراق، ينتج دخاناً كثيفاً يحجب الشمس إلى أيام فتبكي السماء مطراً أسود يسمم كل شيء حي، يسمونه المطر النووي. تبرد الأرض وتعود إلى عصرها الجليدي الأول. وفي مرحلة الانتقال السريع من هذا العصر إلى العصر الجليدي لن يبقى حياً إلا الجرذان وبعض أنواع الحشرات. يصحو الجرذ، ذات صباح، ليجد نفسه إنساناً يحكم الأرض. كافكا مقلوب. وأنا أسأل: أيهما أقسى: أن يصحو الإنسان ليجد نفسه حشرة ضخمة، أم تصحو الحشرة فتجد نفسها إنساناً يلعب بالقنبلة النووية وقد حسبها كرة قدم!. .

سماء بيروت قُبَّة كبيرة من صفيح داكن. الظهيرة المطبقة تنشر رخاوتها في العظام. الأفق لوح من الرمادي الواضح لا يلونه سوى عبث الطائرات. سماء من هيروشيما. في وسعي أن أتناول طبشورة وأكتب على اللوح ما أشاء من أسماء وتعليقات. اجتذبتني الخاطرة: ماذا سأكتب لو صعدت إلى سطح بناية عالية: لن يمروا؟ كتبوها. «نموت ليحيا الوطن»؟ كتبوها. هيروشيما؟ كتبوها. طاشت الحروف كلها من ذاكرتي ومن أصابعي. نسيت الأبجدية. لم أتذكر غير حروف خمسة: ب ي ر و ت.

□ □ □

جئت إلى بيروت منذ أربع وثلاثين سنة. كنت في السادسة من عمري. وضعوا على رأسي قبعةً وتركوني في ساحة البرج. كان فيها ترام. ركبت في الترام. سار الترام على خَطّي حديد متوازيين. صعد إلى ما لا أعرف. صعد على خطّي الحديد وسار. سار الترام. لم أعرف أيهما يُسَيِّر هذه اللعبة الكبيرة ذات الجلبة: خط الحديد الممدود على الأرض، أم العجلات الدائرة على خط الحديد. نظرت من نافذة الترام رأيت بنايات كثيرة، فيها نوافذ كثيرة، تطل منها عيون كثيرة، ورأيت أشجاراً كثيرة. الترام يسير والبنايات تسير والأشجار تسير. كل شيء حول الترام يسير عندما يسير الترام. عاد الترام إلى المكان الذي وضعوا فيه قبعةً على رأسي. تلقفني جدي بلهفة. وضعني في سيارة وذهبنا إلى الدامور. الدامور أصغر من بيروت وأجمل من بيروت، لأن فيها بحراً أكبر، ولكن ليس فيها ترام. خذوني إلى الترام، فأخذوني إلى الترام. ولا أذكر من الدامور غير البحر وبساتين الموز. ما أكبر أوراق الموز.. ما أكبرها! والزهور الحمراء المتسلقة على جدران البيوت. وحين جئت إلى بيروت،

مرة أخرى، قبل عشر سنين، كان أول شيء فعلته هو أنني أوقفت سيارة وقلت للسائق: خذني إلى الدامور. كنت قادماً من القاهرة، وكنت أفتش عن خطى صغيرة لولد مشى خطى لا تليق بعمره، خطى أكبر منه ومن قدميه. عمَّ كنت أبحث: عن الخطى أم عن الولد؟ أم عن أهل قطعوا البرية الوعرة ليصلوا إلى ما لم يجدوا، كما لم يجد كافكا أتيكاه؟ كان البحر في مكانه. كان يدفع الدامور شرقاً لتصير أكبر. وصرت أنا أكبر. صرت شاعراً يبحث عن ولد كان فيه، تركه في مكان ما ونسيه. الشاعر يكبر ولا يسمح للولد المنسي بأن يكبر. هنا قطفت الصور الأولى. وهنا تعلمت الدروس الأولى. وهنا قبلتني صاحبة البستان، وهنا سرقت الورد الأول. وهنا كان جدي ينتظر العودْة في الجرائد ولا يعود. جئنا من قرى الجليل. نمنا ليلة قرب بركة رّميش القذرة، قرب الخنازير والأبقار. وفي الصباح التالي سرنا شمالاً. قطفت التوت من صور. ثم استقر بنا الرحيل في جزّين. لم أر الثلج من قبل. كانت جزين مزرعة للثلج وكان فيها شلال. لم أر الشلال من قبل. ولم أعرف، من قبل، أن التفاح يتدلى من أغصان الشجر، كنت أحسبه ينبت في الصناديق. نحمل السلال القصبية الصغيرة ونختار التفاح من الشجر. أريد هذه الحبة. وأريد تلك الحبة. آخذها وأغسلها في جداول المياه الهابطة من سفح الجبل إلى مجاريها الصغيرة بين البيوت الصغيرة المتوجة بالقرميد. وفي الشتاء لم نتحمل برودة الرياح اللاذعة فرحلنا إلى الدامور. غروب الشمس يسرق الوقت من الوقت. والبحر يتلوّى كأجساد العاشقات ليرفع صرخته في الليل وللليل. ذهب الولد إلى أهله هناك في البعيد، في بعيدٍ لم يجده هناك في البعيد. مات جدي وهو يحدق في تراب محبوس خلف سياج. في تراب غيّروا جلده من قمح وسمسم وذرة وبطيخ أحمر وأصفر إلى تفّاح خشن. مات

جدي وهو يَعُد الغياب والمواسم ودقات القلب على أصابع يـدين يابستين. سقط كالثمر المحروم من غصن يسند عليـه عمره. لقـد خربـوا قلبه. تعب من الانتظار هنا في الدامور. ودع أصـدقاءه، وأرجيلتـه، وأبناءه، وأخـذني وعاد ليجد ما لم يجد هناك. وهنا كثـر الغربـاء واتسعت مخيماتهم. مـرت حـرب. . حربـان. . ثلاث. . أربـع، وازداد الـوطن ابتعـاداً عنهم، وازداد الأطفـال ابتعاداً عن حليب أمهـاتهم بعدمـا شربـوا حليب وكـالـة الغـوث. فاشتروا بنادق ليقربـوا البلاد الهـاربة من أيـديهم. أعادوا هـويتهم، وأعادوا تـركيب الـوطن من جـديـد، وسـاروا على الـطريق، فـاعتـرضهم حُـرَّاسُ الحـروب الأهلية، فـدافعـوا عن خـطاهم، فخـرج الـطريقُ عن الـطريق. وسكن اليتيم جلد اليتيم، ودخل المخيم في المخيم.

□ □ □

لا أستـطيع أن أحفـر اسمي على حجر في الـدامور، حتى لـو كانت متـراساً لقنـاصـة أرادوا روحي. لا أستـطيـع ولا أستـطيـع. فلتبعـدوا هـذا المُصَوِّر عن وجه الحجر. أبعدوا هذا الخطاب عن بحرٍ ما زال جالساً على مكانه. ولا أستـطيع أن أرفـع شهيدي على كتف جثـة معلقة على أغصـان المـوز. . لا أستطيـع. «الحرب هيَ الحـرب» ليست لغتي. لن أقرأ شعـراً في الـدامـور. و«مــا العمـل تجــاه مـا يقــطع المخيم عن المخيم» ليس سؤالي. . ليس سؤالي أبداً أن أحفر اسمي على حجـر في الدامـور، لأني أبحث عن ولد، ولا أبحث هنا عن بلد.

□ □ □

وفي أنقاض الدامور، وجد أبناء الشهداء والناجون من «تـل الزعتـر» ملجأ آخر في سلسلة الملاجىء المتنقلة. حملوا التعب والخيبة ومـا نسيت

أن تقطعه السكاكين من أجسادهم وجاءوا إلى الدامور. جاءوا يبحثون للنوم عن متر مفتوح للريح والأناشيد. ولكن ما نسيت أن تفعله الخناجر البدائية فعلته الطائرات الحديثة التي لا تتوقف عن قصف هذا البقاء البشري. إلى أين؟ إلى أين؟ من مذبحة إلى مجزرة يُساق شعبي ويتناسل في محطات الأنقاض، ويرفع شارة النصر، ويرفع الأعراس.

أَلِلْقذيفة أحفاد؟.. نحن

أَلِلشظيّة أجداد؟.. نحن

ومنذ عشر سنين أقيم في بيروت، في مُؤقت من أسمنت، أحاول أن أفهم بيروت فأزداد جهلاً بنفسي. أهي مدينة أم قناع؟ منفى أم نشيد؟ سرعان ما تنتهي، وسرعان ما تبدأ. والعكس أيضاً صحيح.

في المدن الأخرى تستند الذاكرة إلى ورقة. تجلس في ساعة انتظار، في فراغ أبيض، فتهبط عليك فكرة زائرة. تصطادها لئلا تهرب منك. وحين تمضي الأيام وتراها تتعرف إلى مصدرها، فتشكر المدينة التي وهبتك تلك الهدية. أما في بيروت فإنك تسيل وتتبعثر. الإناء الوحيد هو الماء. تأخذ الذاكرة شكل فوضى المدينة، وتدخل في كلام يُنسيك الكلام السابق..

ونادراً ما تلاحظ أن بيروت جميلة..

ونادراً ما تحتاج فيها إلى التمييز بين المبنى والمعنى..

ولا تكون جديدة، ولا تكون قديمة..

وحين يسألونك: هل تحبها؟ يفاجئك السؤال فتتساءل: لماذا لم أنتبه؟ أأُحبها؟ ثم تبحث عن عاطفة محددة لها، فتصاب بدوار أو خَدَر. ونادراً ما تحتاج إلى التأكد من أنك في بيروت، لأنك موجود فيها بلا

دليل، وهي موجودة فيك بلا برهان، وتذكر أن مثل هذا السؤال في القاهرة ينتهي بالخروج إلى الشرفة للتأكد من وجود النيل. إذا رأيت النيل فهذا يعني أنك في القاهرة. أما هنا، فإن صوت الرصاص هو الذي يدل على بيروت. صوت الرصاص أو صراخ الشعارات على الجدران.

هل هي مدينة، أم مخيم شوارع عربية وضعت بلا ترتيب، أم هي شيء آخر: حالة، فكرة، إحالة، زهرة خارجة من نص، فتاة تربك المخيلة؟

ألهذا السبب لا يستطيع أحد أن يؤلف أغنية بيروت؟

كم تبدو سهلة؟

وكم تبدو مستعصية على تجانس المفردات المتجانسة الإيقاع والقافية: بيروت. ياقوت. تابوت. .

أم لأنها تقدم نفسها لعابر السبيل الذي، وحده، يشعر بأنها بهجته الخاصة. ووحدهم أصحابها وأصحاب الأسماء المنسية هم المحرومون من دهش يدهش الآخرين.

أنا لا أعرف بيروت. ولا أعرف إن كنت أحبها أم لا أحبها. .

للسياسي المهاجر كرسي لا يتغير ولا يتبدل. وبتعبير أدق: للكرسي سياسي مهاجر لا يغيره. .

وللتاجر المهاجر فرصة التأكد من أن ريح الخمسينات التي وعدت فقراء العرب بشيء ما، لن تمر من هنا. .

وللكاتب الذي ضاقت به بلاده أو ضاق بها الحرية في أن يعتقد أنه حر، دون أن يعلم في أية جبهة يحارب. .

وللشاعر السابق إمكانية الحصول على مُسدس وحارس ومال:

فيتحول إلى زعيم عصابة يغتال ناقداً ويرشي آخر. .

وللفتاة المحافظة القدرة على إخفاء الحجاب في حقيبة يدها على سُلم الطائرة، والاختفاء مع عشيقها في فندق. .

وللمهرب أن يهرِّب.

وللفقير أن يزداد فقراً.

ولكل قادم إلى بيروت بيروته الخاصة به، ولا نعرف ولا أحد يعرف إلى أي حد يشكل مجموع هذه المدن مدينة بيروت التي لا يبكي عليها الباكون، ولكنهم على ذكرياتهم أو مصالحهم الخاصة يبكون. .

ربما في هذه الطريقة، الطريقة التي بحث بها العربي عما ينقصه في بلاده، تحول لقاء الأضداد إلى هذه التسمية الغامضة، وإلى رئة يتنفس منها نفر من البشر، بينهم القاتل والقتيل، الأمر الذي جعل بيروت غناء الفوارق والفروق، دون أن يسأل الكثيرون من العشاق هل هم في بيروت أم هم في أحلامهم.

أما بيروت فلا أحد يعرفها. ولا أحد يبحث عنها. ولعلّها لعلّها ليست هنا أبداً. وفي الحرب فقط عرف الجميع أنهم لا يعرفونها. وعرفت بيروت أنها ليست مدينة واحدة، ولا وطناً واحداً، وأنها ليست بلاداً متجاورة، وأن ما بين هذه النافذة والنافذة المقابلة من التناقض ما يفوق التناقض بيننا وبين واشنطن، وأن التناحر بين هذا الشارع والشارع الموازي يفوق التناحر بين الصهيوني والقومي العربي.

وفي الحرب فقط أدرك المقاتلون أن سلام بيروت مع بيروت مستحيل.

وفي الهدنة فقط أدرك المقاتلون والمراقبون أن هذه الحرب لا نهاية لها، وأن النصر فيها ـ خارج توازن الهزيمة ـ مستحيل.

ولعل الجميع أدركوا أن لا بيروت في بيروت، فهذه السيدة الجالسة على حجر صورةً لزهرة عباد الشمس تتبع ما ليس لها، وتجر عشاقها وأعداءها، على السواء، إلى دورة خداع البصر، فتكون لهم أم عليهم، ولا تكون لهم أم عليهم.

إنها شكل لشكل لم يتشكل، لأن الحرب فيها ـ أعني حولها ـ سجال. ولأن الثابت فيها هو المتغير، ولأن الدائم فيها هو المؤقت.

أو: خذ موجة. أجلسها على صخرة الروشة. فكك عناصرها، فلن تجد غير يديك غارقتين في لعبة سحر لا تنتهي ولا تبدأ.

سؤال: هل هي المرآة؟
جواب: بقدر ما تصلح الموجة لأن تكون حجراً..
سؤال: هل هي طريق؟
جواب: بقدر ما تكون القصيدة شارعاً..
سؤال: هل تكذب؟
جواب: عندما يُصَدِّقُ المرء ما لا يُصَدَّق..

وفي الحرب الطويلة كانت واضحة. كان يبدو لي أن هذه الوجوه كالتي تدخل المرآة سترى ما لم تر خارج الدم والحريق، وتغير مصادر انعكاسها. وكان يبدو لي أن بيروت تستطيع أن تكون جزيرة في الماء أو الصحراء. وكان يبدو لي أن القبائل المتحلقة حول رقصة النار ستنتقل من السلالة إلى الوطن. وأن الوطن سيدخل في الأمة. وأن الأمة ستكتشف بدهية شرط حياتها، كأن تعرف من هو العدو، وأين هو العدو. وكان يبدو

لي أن هؤلاء الشهداء، وهذه اللغة الجديدة، وهذا الرماد العظيم سيخلق لنا ـ على الأقل ـ علامة. وأن بداية التغيير قد بدأت، وأن الصدفة الإقليمية قد انكسرت وأطلت منها لؤلؤة الجوهر.

وكان يبدو لي.. وكان يبدو لي..

ولكن العصفور الذي انبثق من دم بيروت ووعودها صار يتساءل: هل أنا في فضاء أم في قفص؟

أمرّ الآن في بيروت، في ربيع 1980، فأرى قفصاً مصنوعاً من ريش جناحيّ. غنائي يثير السخرية. وصرتُ الغريب الوحيد.

ـ هل أخطأت؟

ـ كثيراً.

ـ أخرج من هنا.

ـ هل انتهت الحرب؟

ـ عاد جميع الغزاة، وولد الوطن من جديد.

ـ إلى أين أعود؟

ـ إلى بلادك.

ـ أين بلادي؟

ـ في الأمة.

ـ وفلسطين؟

ـ ابتلعها السلام.

وصرت الغريب الوحيد. ماذا أفعل في باريس؟ ماذا تفعل في بيروت. إلى متى أبقى في لندن؟ إلى متى تبقى في بيروت.

قل لي، ماذا جرى لبيروت؟

قال: صارت قوية

قلت: هل انتصرت فيها العروبة أم. . . ؟

قال: لا هذه ولا تلك. انتصرت فيها رياح المنطقة، لأنها لا تستطيع أن تكون جزيرة في الماء أو واحة في الصحراء. عد من حيث أتيت لأن الشارع يرفضك.

وصرت الغريب الوحيد. كم أكتم شكواي: لماذا يكون الوطن اللبناني منافياً لفلسطين؟ لماذا يصير الرغيف المصري منافياً لفلسطين؟ ولماذا يصبح السقف السوري منافياً لفلسطين؟ ولماذا تكون فلسطين منافية لفلسطين.

كم أنا غريب هنا، في ربيع 1980، الهواء ينذر بشيء ما، وطريق المطار ينذر بشيء ما، والبحر ينذر. وصرت الغريب الوحيد.

.. . وعلى الجدران، تقضم الأَعلام الرسمية مزيداً من صور الشهداء، ومن الكلمات التي كانت تنشىء تماسك الوطن على علامات الطريق الجديدة. بيروت مرت من هنا. بيروت مرت من هنا. بحثتُ عن طفلة الجنوب التي أكلت بطاقة هويتها الرسمية، فوجَدتها تتدرب على النشيد الرسمي، وتنتظر المصفحة التي تحمل إليها العيد. .

إنه الوطن. .

بيروت مكللة بأدوات الزينة والخطابة والمراسيم التي تمردت عليها بيروت حين مرت من هنا. صارت العودة إلى الفوارق التي أشعلت حرب السنوات الأربع أمنيةً واحدة. وعادت بيروت وطن اللغة التي ثارت عليها. لم لا؟ لم لا؟ لم لا؟ والسلام يخيم، فجأة، على الجنوب لولا مواقع

يـربـطهـا بفلسـطين خيط من دم . . السـلام يخيم على الجنـوب لـولا فلسطين . .

ورأيت بيـروت تبكي الجنـوب. أعني رأيت المثقفين والـرسميين يبكون الجنوب. فجأة تذكـروا أن بيروت عـاصمة لبنـان، وأن الجنوب من لبنان. وتذكـرت كيف كانـوا ينسون الجنوب حين كانت الـطائرات تشـوي الجنوب. قبل تأسيس دولة حدّاد، كانـوا يجلسون في المقـاهي، يشربـون البيـرة، ويشفقون على عـذاب بيافـرا. يومهـا كـان مفهـوم الـوطن يـزعـج الإسـرائيلي الذي لا يعتـرف بوطن على الحـدود. يومهـا كان الـوطن يعني الـواجب. وكان الـواجب يعني حمايـة الجنوب من الـطائرات والـدبـابـات الإسرائيلية. يومها لم يكن الوطن في حاجة إلى وطن.

ـ ماذا تغير يا صديقي؟

ـ البنايات الفخمة ملأى بـالمهاجـرين من الجنوب، والمهـاجرون لا يدفعون الأجرة . .

ـ وماذا تغير يا صديقي؟

ـ الـوجع الجـديد يـطرد الوجـع القديم. والمشكلة الجـديدة تـزيـح المشكلة القديمة. وأنت الغريب الأخير.

الأسئلة تثير سخرية بيروت الباحثة عن توازن جديد للتوازن القـديم، وعن وطن قـديم للوطن الجـديـد. التيـارات تبحث عن الصـدفـات التي خـرجت منها. وليس من حق أحـد أن يلومها إلا بقـدر ما كـان من حقه أن يصدق ما صدق. يُقال إن حرب الوعود انتهت ويبدأ بنـاء السلطة. ولم تعد المرآة تعكس إلا ما هو أمامها.

وهذا الفضاء قفص. . .

□ □ □

. . . وماذا أيضاً، عليك أن تكون أبيض، فهنالك ما هو أغلى من الحرية، ومن الحياة. . .

ما هو؟

البياض

. . «ويقول علماء التاريخ الطبيعي أن السمّور حيوان صغير ذو فراء أبيض، شديد البياض، وإذا أراد الصيادون صيده يستخدمون هذه الحيلة: يلاحظون المسالك التي يعتاد المرور بها، ويضعون فيها الطين ثم يأخذون في مطاردته. وحين يصل السمّور إلى المكان الذي وسخه الطين يتوقف دفعة واحدة، ويفضل أن يُصطاد ويُقتل على أن يمر في الطين، ويوسِّخ بياض فرائه، لأنه يُفَضِّل البياض على الحرية وعلى الحياة».

سرفانتس [في حكاية المستطلع الفاسد الرأي]

□ □ □

أَللقذيفة أحفاد؟. . نحن

أَللشظيّة أجداد؟. . نحن

وانقلب الصمت، صمت المتفرجين، إلى ملل. متى ينكسر البطل؟ متى ينكسر ليكسر تتابع الخارق إلى مألوف. البطولة أيضاً تدعو إلى الضجر عندما يطول المشهد فتخف النشوة. ألم يُدفع موضوع هذه البطولة ذاته إلى موقع الضجر ليكون هو ذاته مصدراً للضجر في سياق حياة تبحث عن حياتها العادية الخالية من الرسائل والهتاف، ليشهر الحاكم أمامها

أسباب التعاسة: فلسطين المسؤولة عن انقراض القمح في الحقول، وعن ازدهار العمران المكلل بالسجون، وتحويل الزراعة إلى صناعة لا تنتج غير بطون الفئة الجديدة، محدثة النعمة، بهموم الاستهلاك الفردي الذي يثقل الدولة بديون يحتاج المواطن أن يعيش عمره مرتين ليسددها؟ لقد جربت مصر هذه الغبطة. وعدها سراب السلام بتحرير الرغيف من ضرائب فلسطين، وبعودة الشهداء إلى أهلهم سالمين، وبوجبة فول أفضل. فازدهرت الكماليات، وامتدت سنوات الخطوبة إلى أجل غير مسمى ريثما يتم العثور المستحيل على عش زواج، وازداد الجوعى جوعاً. ووضع السادات كل من تساءل: أين ثمن السلام؟ في السجن حتى خرج من صفوف حراسه فتى يطلق الرصاص على فرعون، وعلى هذا السلام، وعلى هذا السراب. والآخرون؟ الآخرون استخلصوا العبرة واستغنوا عن شبق السادات أمام الخطاب وشيدوا، بمنهجية ومثابرة، سلام الأمر الواقع المشروط بربط المعدة العربية بشروط الرضا الأميركي. وضعوا المعدة العربية رهينة، وأشهروا الحرب، بالسلاح وبالصمت، على موضوع البطولة وانتظروا، بقليل من الحرج، أن يحرق الإسرائيليون، نيابة عن الجميع، مسرح هذه البطولة ومنصة هذا الخطاب البديل. البطولة أيضاً تدعو إلى الضجر. كفى. واختلفوا في طريقة تسويق الضجر: بعضهم يدعو إلى انتظار مرحلة تاريخية تنقلب فيها موازين القوى، بعصا سحرية خارجية، إلى مصلحتنا، مما يوفر لنا حق الكلام في الحرب أو السلام. وبعضهم يستعجل النهاية وينصحنا بالرحيل على سفن أميركية، بلا شروط وبلا مماطلة. وبعضهم يستعجل النهاية أيضاً بدعوتنا إلى الانتحار الجماعي ليستولي هو على مسرحه وعلى مسرحنا. كفى، إلى متى يصمدون؟ فإما أن يموتوا وإما أن يخرجوا! إلى متى يخدشون أمسيات

العرب بجثث تقطع تسلسل المسلسل الأميركي؟ إلى متى يحاربـون ونحن في عز الإجازة والمونديال وتربية الضفادع؟ فليفتحوا الطريق أمـام شهواتنـا وعارنا. لتتوقف هذه الملهاة. أما حكمـاؤهـم، المجللون بلياقـةِ التعاطف، فإنهم يقدمون للضجر مظهراً أبهى: آن لهم أن يعرفوا أن لا أمل. . لا أمل يرتجى من العرب. أمة لا تستحق الحياة. أمة على صورة حكامها. وهـذه معركة يائسة فليدخروا دمهم لتاريخ آخر.

صمت مُكَلَّل بكل ما يفرغ التاريخ من أنخاب. أحصنة تزيينيـة على حقـول ألفت مواسم الغـزو. وخطاب واحـد يشتهي اغتراب الكلمـات عما وراءهـا. خطاب واحـد يعـدد الصـدأ المتـراكم على الكـلام منـذ استـوى الخطيب على عرش المنبر. خطاب واحد يلقيه المنقسمـون على أنفسهم، المقتتلون على خـطاب. أمن حق مـدينــة، في هـذا الحجم، وفي هــذه الفوضى، أن تمنح الوقت اسماً مختلفاً؟ أمن حقها أن تخربش فوق اللوحة المكتملة اللون؟ أمن حقها أن تقترب من سياج الصراع المحكم التسييـج؟ وتضع قواعـد أخرى لجيـران العدو ـ هـذه هي أسماؤهم وألقـابهم: جيران العدو. إذن «الموت لبيروت» يعنون: الموت لهذا الشـارع الأخير الخـارج عن هندسة الطاعة.

ضجـروا، ضجـروا. لقـد طـالت المهلة المحــددة لسقـوط المعنى الأخير، المتدلي كالثمرة الناضجة على نخلة العرب اليابسة. المتدلي لمن يرث ليدفن لا ليعلن جدوى التراكم. متى يوقفون الجنـون؟ متى يرحلون؟ ومتى يدخلون في تشابه الرمـل؟ متى يسقطون مثلنـا، مع الاحتفـاظ بفارق معافى هو: اننا نسقط على عرش، من الهزائم المدويـة إلى العرش، وهم يسقطون على نعش، من البطولة إلى النعش. .

وفي جعبة الضجر ما يشبه الحكمة: نحن، نحن الذين نختار زمان المعركة ومكانها ونتائجها. ولن نستخدم هذا السلاح إلا وقت الشدة. من يعرف وقت الشدة. من أين تأتي الشدة في هذا الرخاء المرفه؟ هم يعرفون أكثر مما نعرف. قد تأتي من حي أو شارع يغضب. ولكن، من يُغضب هذا الشارع الذي أدمَنَّا هجاء حراسه وتبرئته من غياب الحماسة لنبرىء الأمل من داء عضال؟ أما من أحَد، في هذه القارة، يقول: لا. أما من أحد؟

ما من أحد..

وزراء الدفاع كانوا يتلهون بفقاعات الشمبانيا، مع القتلة، كلما جاءهم خبر عن تضييق الخناق على تل الزعتر. فبماذا يتلهون الآن. أثناء تضييق الخناق على بيروت؟ لقد رأينا صورهم على أحواض السباحة. أليس شهر آب حاراً، ورأينا تعب حراسهم المدججين بالبنادق وهم يرفعون ابتسامات أسيادهم السائلة حتى الركبتين في محاولة لإعادتها إلى الأفواه المفتوحة سالمة.. سالمة من عيون المارة ومن حصار بيروت..

ولكنني لا أغضب، كما يغضب غيري، من المظاهرات العربية الصاخبة التي خرجت تحتج على حكم منحاز في مباريات كرة القدم، لا لأن كرة القدم تلهب الحماسة أكثر من هذا الصمود الطويل في بيروت، بل لأن المكبوت العربي، المتعدد المصادر، قد عثر على نقطة الانفجار في المتاح العربي. ووجد فرصة التعبير الممكن عن غضب مزمن في حرب لا تهدد الوطن مادياً، في حرب معنويات تنتهي إلى هدنة أكيدة بعد خمس وأربعين دقيقة، يعيد خلالها المتحاربون توزيع صفوفهم وتعديل خططهم الهجومية والدفاعية، ويتزودون بما يحتاجون إليه من ذخيرة معنوية ونجدة

شعبيــة، ثم يعـودون إلى القتــال تحت إشـراف قــوات دوليـة لا تسمــح باستخدام الأسلحة المحرومة دولياً. وتنتهي الحـرب المحدودة، المسيـطر عليهـا، في ساحـة المعركـة وخارجهـا، ولا تتجاوزهـا إلى حدود البلدين، باستثناء حالات نادرة كما حدث بين السلفادور وهندوراس. ولكن التـوازن الـدولي الدقيق، الممثـل في مجلس الأمن، تمكن من إصدار قـرار قـابـل للتنفيذ!

ولأني أحب كرة القدم، لم أغضب كما غضب غيري من المفـارقة. لا مـظاهـرة واحـدة يثيـرهـا حصـار بيـروت، بينمـا تثيـر كـرة القـدم هـذه المـظاهرات أثنـاء حصار بيـروت. لم لا؟ إن كرة القـدم هي ساحـة التعبير التي يـوفرهـا تواطؤ الحـاكم والمحكوم في زنـزانة الـديموقـراطية العـربيـة المهـددة بخنق سجنائهـا وسجانيهـا معاً. هي فسحـة تنفس تتيح للوطن أن يلتئم حول مشترك ما، حول إجمـاع ما، حـول شيء ما، تضبط فيـه حدود الأطراف وشروط العلاقة، مهما تسربت منهـا ايماءات ذكيـة، ومهما أسقط فيها المشاهد على اللعبة مـا فيه من المعـاني المضغوطـة. وطن، أو شكل من تجليـات روح الوطن يـدافع عن كـرامته، أو تفـوقه، أمـام الآخر، فـلا يخسـر توزيـع القوى الـداخلي شيئاً من تمـاسكه الـظاهري. المتفـرجـون يستـولون على أدوارهم نحـو هدف واحـد هو تصـويب الهـدف. والحـاكم الـذي عيّن نفسه مُعبّـراً عن روح الأمـة يعبـر عن نصـر هـو نتـاج سيـاستـه الحكيمـة، وتنشيط الإرادة والطاقـات. لعله، وليس الـلاعب، هـو الأقـدر على التـأويل لأنـه هو صـاحب الأمة وراعيهـا، وهـو الـذي ينفق من مـالـه الخاص على تشجيع الرياضة. ولكن الأمر ينقلب إلى عكسـه حين تختلف النتيجـة عن المنشود والمتـوقع، حين ينهـزم الوطن الـلاعب أمام الآخـر.

عندها يتنصل الحاكم من الهزيمة ويحملها للأجهزة، لتاريخ التقاليد مرة، للمدرب مرة ثانية، لانتكاسة اللاعبين ـ المحاربين مرة ثالثة، ولانحياز عوامل خارجية متمثلة بالحكم مرة رابعة.

لا، ليس للهزيمة أب واحد. وفي السياسة ، ليس من التقاليد العربية الحديثة معاقبة القائد على الهزيمة. إنه يدعو الشارع للعطف عليه، ولمواساته الجماعية المعبَّر عنها في دعوته إلى البقاء على العرش ليكيد الأعداء. أليس ما يريده الأعداء هو إسقاط الحاكم، ولتخليصنا من هذه النعمة؟ فلننتصر عليهم بالانتصار على أنفسنا وإبقاء الحاكم المهزوم جلاداً لنا.

ولكن الأمر يختلف في كرة القدم: في وسع الشارع أن يغضب على اللاعبين وعلى المدرب وعلى الحَكَم الأجنبي. اللاعبون خانوا روح الأمة، والمدرب أساء وضع الخطة، والحكم منحاز. أما الحاكم فهو بريء من الهزيمة، لأنه مشغول بقضايا أكثر جدية. لذلك يرفع الشارع الغاضب صورة الحاكم عالية عالية، وينفذ من تحتها إلى حرية التعبير: يشتم الغرب كما يشاء ويومىء إلى الداخل كما يشاء. هذا ما تبقى لنا من حرية، فهل نُفرِّط بها؟ وهذا ما تبقى لنا من متعة، فلنصفق لما يشير إلى العافية. الأمة في خير ما دامت قادرة على الحماسة. كرة القدم تقول لنا ذلك. تقول إن العاطفة الجماعية لم تتبلَّد. وأن في مقدور الشارع أن يتحرك بلعبة لا تثير الضجر. ألم تحتل فلسطين، في ما مضى من حاضرنا، هذه المكانة العاطفية الحماسية؟ ألم يتحرك كُل شيء باسمها، ولها، ومن أجلها؟

كل ما يصيب فلسطين يصيب الشارع العربي بعدوى الحزن والصخب والغضب. كان الشارع يُسقط الحاكم لأي مساس بهذا القلب

الجماعي. الآن يتسابق الحُكّام ليرشوا الشارع، ليدفعوه إلى التخلي عن هذا الإجماع. السلاح العربي الرسمي يتصدى، علانية، للخطورة والفكرة الفلسطينيتين ويحملهما المسؤولية عن بؤس الأمة وعبوديتها. لولا فلسطين، البعيدة المنال، الوهمية، المتخيلة، المبكرة إلى موعدها البعيد، المتقدمة على الوحدة العربية، لولاها لكنا أكثر حرية وأوفر رخاء ورفاهية! هكذا يذيع الخطاب الرسمي شائعات الضجر. ولكن الشارع يعرف كيف يناور ويؤول ويستخدم الكناية، فإن السجون ليست شرطاً لتحرير فلسطين.. و «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» لم يقدم غير معنى واحد: لا فلسطين، ولا معركة، ولا صوت. عاش السوط! لذلك كان سؤال الخبز والحرية يتسلل إلى سؤال التحرير المعصوم عن العقاب، إلى أن فضح الحاكم اللعبة المؤوّلة، فحرم فلسطين وأخرجها من الملعب الوطني ليخرج السؤال الاجتماعي من كلمة سر الأمة..

هامش كرة القدم هو الهامش الفلسطيني السابق. فليغضب الشارع، وليهرب سؤاله المكبوت إلى لعبة لا تثير الضجر، ولا تتيح للحاكم، حتى هذه اللحظة، أن يُغلق الملعب.

صمت مُتوّج بأوهام القادرين، إلى الآن، على تقسيم الجهات إلى جهتين، والألوان إلى لونين.

صمت مُكلّل بأوهام القادرين على انتظار النجدة. صمت مُرصّع بذهب الأمل القادم من خارج هذه الساحة. صمت الذين يقودون الجملة الثورية إلى خارج مصادرها، بتبعية محكمة ومستحكمة، استبدلت الشارع بالعاصمة، ونطقت باسم الشارع ضد العاصمة الأخرى، لأنها استثنت عاصمتها، سياج وعيها، من طبيعتها، وعينت للشر المطلق عاصمة،

وللخير المطلق عاصمة. واستطاعت، في كل منعطف، أن تستبدل عاصمتها بعاصمة أخرى، دون أن تتخلى عن تدفُّق الجملة الثورية المرادفة للعاصمة. لا بد من عاصمة.. لا بد من عاصمة!..

□ □ □

لماذا يرتجف الصنم إلى هذا الحد، لماذا يرتجف الصنم؟ سيقول عكس ما هو.

سيقول عكس هذا الصمت الذي يُطبق عليه..

سيواصل تلاوة درس البداية،

سيمجد امتثال التاريخ والمذابح والعذاب إلى برهانه: ألم أقل لكم؟

ولكنك لا تقول شيئاً يا سيِّدي الصنم..

يندس في السلطة ليكون معارضاً. ويندس في المعارضة ليكون هو السلطة. ويحارب السلطة بسلطة أخرى، ولا يتبعه أحد من فرط ما هو تابع.

هذه هي لحظتك، يا سيدي الصنم، قل شيئاً لتبقى صنماً من صنم.

سيقول كلاماً آخر بعد أي شيء آخر.

سيقول إنه لم يوافق على الخروج.

سيقول إنه قال لنا.

ولكنه لم يقل لنا شيئاً.

لماذا أرى الصنم، للمرة العاشرة، لماذا أرى الصنم؟.

□ □ □

صمت من ذهب، صمت من شماتة. لذلك أعجبتني غضبة الأمة على التآمر الغربي العنصري على المشاركة العربية الصاعدة في «الموندیال». كانت العَلاَمَة الوحيدة علي وجود شيء يتحرك خارج أسوارنا الصاروخية. كانت الدليل على أن الأمة لا تسمح للأجنبي بأن يخدش روحها. وكانت تحمل رَدّاً ساخراً على وزراء الخارجية العرب الذين تنادوا للاجتماع في تونس لبحث «إمكانية» عقد مؤتمر قمة عربي لبحث الاجتياح الإسرائيلي، وَرَدّاً ساخراً على عدم احتجاج الدولة اللبنانية على هذا الاجتياح واكتفائها بدور الوسيط بين المبعوث الأميركي وقيادة المقاومة. فتساءلنا: لماذا يحرق أصحاب «قمة الحضيض» العربي ثومهم وبصلهم وأصابعهم؟ أليس في الوقت متسع للمزيد من الاجتياح وابتلاع الأرض والناس، إذ لم يمض على الغزو غير شهر واحد فقط.. شهر واحد لا يزيد عن لحظة عابرة في تاريخ الحكم العربي الخالد. ولا تكفي لصياغة رد الدول العربية على عجلة من أمرها، والعجلة من الشيطان الرجيم، ليقضي وزراء خارجيتها ساعات صعبة في تونس، يختلفون فيها على تحليل أهداف الاجتياح ومداه: هل هو ضد الفلسطينيين واللبنانيين أم ضد سائر العرب؟ هل سيتجاوز الإعلان الإسرائيلي عن مداه.. وسيختلفون على تعريف مادة البترول: هل هو سلعة تجارية، أم سلاح سياسي؟ لقد شعروا، ثانية، بالضجر. فإن الخبر المشتهى لم يعلن بعد، المقاومة لم تمت. وما زال في خزانات الطائرات الإسرائيلية من البنزين والقذائف ما يكفي لإحراق خمسين ألف طفل لبناني وفلسطيني. وما زال في مستودعات الأسلحة الأميركية التقليدية ما يكفي لتدمير كل المدن. وما زال في بيروت بعض الماء والمعلبات والاوكسجين الكافية لمواصلة المقاومة. وما زال في سماء العرب المفتوحة ممرات كثيرة للمزيد من قاذفات القنابل. وما زال

في البحر الأبيض المتوسط مكان للمزيد من الغواصات وحاملات الطائرات والمعاهدات الدولية. وما زال في بيروت أهـداف مدنيـة كثيرة لم تقصف. فلماذا العجلة لماذا العجلة؟

ونحن أيضـاً نحب كرة القـدم. ونحن أيضـاً يحق لنـا أن نحب كـرة القـدم، ويحق لنا أن نـرى المباراة. لم لا؟ لم لا نخـرج قليـلاً من روتين الموت؟ في أحد الملاجىء استطعنا استيراد الطاقة الكهـربائيـة من بطاريـة سيارة. وسرعان ما نقلنا «باولو روسّي» إلى ما ليس فينـا من فرح. رجـل لا يُـرى في الملعب إلا حيث ينبغي أن يُرى. شيـطان نحيل لا تـراه إلا بعـد تسجيل الهدف، تماماً كالطائـرة القاذفـة لا تُرى إلا بعـد انفجار أهـدافها. وحيث يكون «باولـو روسي» يكون الجـوول، يكون الهتـاف، ثم يختفي أو يتـلاشى ليفتح مسـارب الهواء من أجـل قدميـه المشغولتين بـطهو الفُـرص وإنضاجها وإيصالها إلى أوج الرغبة المُحَققة. لا تعرف إن كان يلعب الكرة أم يلعب الحب مـع الشبكة، الشبكـة تتمنع، فيغـويها ويغـاويها بفـروسيـة إيـطالية أنيقـة على ملعب إسباني حـار. ويغريهـا بانـزلاق القطط الهـائجة المـائجة على صـراخ الشهوة. وعلى مـرأى من حُـراس العـرض المصـون الذين يعيدون إغلاق بكارة الشبكـة بغشاء من عشـرة رجـال، يتقـدم «باولـو روسي» بكـامل الشبق، يتقـدم لاختراق شبكـة قابلة للنيـل من عضلة هواء مرتخية عجزت عن المقاومة، فاستسلمت لاغتصاب جميل..

كرة القدم،

ما هذا الجنـون السـاحـر، القادر على إعـلان هدنـة من أجل المتعـة البـريئـة؟ مـا هـذا الجنـون القـادر على تخفيف بـطش الحـرب وتحـويـل الصواريخ إلى ذباب مزعج! وما هـذا الجنون الـذي يعطل الخـوف ساعـة

ونصف الساعة، ويسري في الجسد والنفس كما لا تسري حماسة الشعر والنبيذ واللقاء الأول مع امرأة مجهولة. .

وكرة القدم هي التي حققتْ المعجزة، خلف الحصار، حين حركت الحركة في شارع حسبناهُ مات من الخوف، ومن الضجر.

ولم أفرح بمظاهرات تل أبيب التي تسرق منا كلَّ الأدوار. فمنهم القاتل ومنهم الضحية. منهم الوجع ومنهم الصرخة. منهم السيف ومنهم الوردة. منهم النصر ومنهم الهزيمة، لأنها تشي بتغييب أبطال المسرح. لقد اعتادوا الحروب السهلة وتعودوا على الانتصارات السهلة. وقد سهل التنافس الانتخابي بين الحزبين الكبيرين عملية انفتاح شوارع تل أبيب على عشرات الآلاف من المتظاهرين، واستنهضتهم ضحاياهم إلى درجة دفعت ضابطاً كبيراً إلى الاستقالة، كنت أستمع إلى إذاعتهم ولا أفهم سر البكاء. المنتصر مهزوم من الداخل. المنتصر يخشى على فقدان هويته: الضحية. لا حق لأحد في أن يحرز هذا الإنجاز: أن يكون الضحية، لأن انقلاب هذا الدور على أصحابه يقلب ميزان العدل الرملي. وبالنيابة عنا كانوا يصرخون، وبالنيابة عنا كانوا يبكون، وبالنيابة عن جدارتهم كانوا ينتصرون. أهنالك ما هو أقسى من هذا الغياب: ألّا تكون معبراً عن النصر، وألّا تكون معبراً عن الهزيمة. أن تكون خارج المسرح، ولا تحضر عليه إلا بوصفك موضوعاً يقوم الآخرون بالتعبير عنه كما يريدون. «إن أردتم فليست تلك بخرافة» هكذا أطلق تيودور هرتسل شعار الصهيونية الداعي إلى تأسيس دولة لشعب لا أرض له على أرض لا شعب لها! وفي حصار بيروت الذي يشهد على وجود شعب له أرض محتلة مع غزاة سرقوا تلك الأرض، قام ناثان زاخ، أحد شعراء الحداثة العبرية، بتعديل شعار

هرتسل بسخرية لامعة: «إن أردتم فليست تلك بخرافة: نصر إسرائيل لن يخيِّب، ولكن لن يدوم لكي يخيب...» عشرات القصائد العبرية تحاول التعبير، بدلاً من القصائد العربية، عن حصار بيروت، والاحتجاج على المذبحة. منهم الخطيئة ومنهم الغفران. منهم القتل ومنهم الدموع. منهم المجازر ومنهم عدالة القضاء.

□ □ □

.. «وليس عند الافرنج شيء من الغيرة والنخوة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طوَّلت عليه خلاَّها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يُقال له معزّ، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل افرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول «فلان التاجر قد فتح بتّية من هذا الخمر. من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا».. فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له: «أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي؟» قال: «كنت تعبان دخلت أستريح». قال: «فكيف دخلت إلى فراشي؟». قال: «وجدت فراشاً مفروشاً نمتُ فيه». قال: «والمرأة نائمة معك؟». قال: «الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟». قال: «وحق ديني، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت». فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته. ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يُقال له سالم من أهل المعرة في حمّام لوالدي رحمه الله. قال: «فتحت حماماً في المعرة أتعيَّش فيها. فدخل إليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشدّ في وسطه

المئزر في الحمام، فمدَّ يده فجذب مئزري من وسطي رماه. فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي، فقال: سالم. فتقربت منه. فمدَّ يده على عانتي وقال: سالم، جيد! وحق ديني اعمل لي كذا. واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع. فحلقته فمرَّ يده عليه فاستوطأه فقال: سالم، بحق دينك اعمل للداما. (والداما بلسانهم الستّ) يعني امرأته. وقال لغلام له: قل للداما تجيء. فمضى الغلام أحضرها وأدخلها. فاستلقت على ظهرها وقال: اعمل كما عملت لي. فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني. فشكرني ووهبني حقَّ خدمتي. فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة. وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة..»

أسامة بن منقذ [كتاب الاعتبار]

□ □ □

.. ساعات ما بعد الظهر. رماد من بخار، وبخار من رماد. المعدن سيد الوقت. لا يفلُّ المعدن غير معدن آخر يصنع تاريخاً آخر. القصف يطاول كل شيء. ولا يبدو أن لهذا اليوم نهاية. آب أقسى الشهور. آب أطول الشهور. وهذا اليوم أقسى أيام آب وأطولها. أما لهذا اليوم نهاية؟ لا أعرف ماذا يحدث في ضواحي المدينة، لأن هدير المعدن حجب عنّا صمت الأشقّاء المُدَوِّي، حجب عنا صمت الملوك والرؤساء ووزراء الدفاع المشغولين بقراءة ما لا يقرأون. ولم يبق أمامنا سوى سلاح الجنون. نكون أو لا نكون. نكون أو نكون. لا نكون أو لا نكون. ليس لنا غير الجنون. «حاصر حصارك بالجنون وبالجنون وبالجنون. ذهب الذين تحبهم ذهبوا، فإما أن تكونْ أو لا تكونْ» تاريخ يتغير شكله ومؤرخوه. تاريخ يكتب صورة

النهر، فمن يؤرخ القاع، من يؤرخ الطحلب، من يؤرخ خروج العدو من الأخ، ودخول الأخ في العدو؟ ومَنْ أطلع في وجهي، ثانيةً، هذا الحلزون؟ حلزون يحمل عبء لعابه الأخضر. حلزون يسدد حائطاً ويمنعنا من الاقتراب من حائط نسقيه بالدم من أجل أن يستولي هو، الحلزون، على العرش. نحن المتخمين موتاً بما ليس لنا ندافع عمّا ليس لنا. وليس لنا هذا الطريق المؤدِّي إلى الجبل. وليس لنا خطاب المنصة التي سيعتليها الحلزون، ويفاخر الأمم بتاريخ ليس له، بتاريخ مسروق من حاجة البطل إلى موطىء لكعب. لماذا يطلع الحلزون في وجهي، مرة أُخرى، في نهار واحد؟ تبّاً لهذا النهار.. تبّاً لهذا النهار.. تبّاً!

.. جالساً في ركن قصيّ، قصيّ عن الآخرين وعن نفسي، أُفكر في ما يرد علي من منام يخرج من منام: هل أنت حي؟ متى حدث ذلك؟ هل تحميني الذاكرة من هذا التهديد؟ هل تستطيع سوسنة الماضي أن تكسر هذا السيف المرصع بالقذائف؟ ولماذا هي.. لماذا هي؟ لماذا تطلع السوسنة من نشيد الأناشيد وقد أوقَفَت الشمس والقمر على أسوار أريحا ليمتد زمن القتل؟

.. حصّة للطفولة وحصّة للشبق. جسد للمغفرة. جسد للشهوات. يذوب رخام الكلام ليصقل مدائح الساق التي تشق المقبرة إلى حديقتين: حديقة للماضي، وحديقة للحلم. ويلمع البرق الأول في العظام اليافعة. كم امرأَة أنت يا عنقود السماء الحافي! كم امرأة فيك لأسقط في زحام روحي وأنجو على توالد لحظة. كم امرأَة أنت ليدخل الوقت في الوقت ويخرج خيطاً من حرير يصطفيني لاختيار مشانق الدم. كم امرأَة فيك لتتقمص البرهة تاريخ الصلاة والمجون على قدمين هما ختم جهنم

والجنة! كم امرأة أنت لتكون سيرة هذا البطن المعجون من رائحة الفل ومن لونه التائه بين الضوء والحليب سيرةً لحروب الدفاع عن الصبا والأربعين. كم امرأة أنت لأسترد الشتاء السابق من كل ما يأتي من مطر أختار من قطراته شبهاً لما عرفت؛ ولأقارن اللذة باللذة، هل كنا معاً حقاً على صوف تلك الأرض؟ أقلِّد ما لا يتبدَّد من رعشة تهز الغرف حين يوحِّدُ ما يتجدد فينا ظنِّي بأني معك. ولم أقل إني أُحبك، لأني لا أعرف إن كنتُ أُحبك ما دمت أُخبىء دمي تحت جلدك وفي شعيرات السرّ المقدس أذرف عسل النحل الأحمق، السرّ الذي امتصني لأجد جسدي يتوالد بلا انقطاع. ولم تقولي أحبُّكَ لأني لن أصدِّق أن جميع النساء اللائي وُلدن على جبل جلعاد وفي سومر وفي وادي الملوك يجتمعن عليَّ الليلة. كم امرأة فيك لتنوح أحلامي على ما تفقد الأمم من شتاء يستحقُّ أن تكوني أُمَّه وسيِّدته. في كُلِّ امرأة جميلة هِبَة من وصايا قدميك للأرض، وإرث لا ينقطع عن تزويد الغابات بهستيريا العشب. ليت واحداً منا يمقتُ الآخر ليصاب الحبُّ بالحب. وليت واحداً منا ينسى الآخر ليصاب النسيان بالذكرى. وليت واحداً منا يموت قبل الآخر ليُصاب الجنون بالجنون.

□ □ □

خذني إلى استراليا ـ قالت لأدرك أنه آن لنا أن نبتعد عن الفارق والحرب. خذني إلى استراليا لأنني كنت عاجزاً عن الوصول إلى القدس. كنت خارجاً من حزيران بعناد لم يرحمني: للجيوش أن تهزم، وللنحلة في قلبي أن تصمد، وللروح أن تنتصر علي وعلى أعدائي. كانت الفتوة والغنائية تحفران لي مساراً آخر على جبل يطل على ساحات تاريخ: عظام أحصنة، ودروع مثقوبة، وأعشاب، من تلك الإطلالة يتضاءل الراهن ولا

تعود الموجة عنواناً للبحر، فأحمي نفسي وربما غيـري من هيجان اللحـظة بانتقالي من شهيد إلى شاهد.

ولكن، لماذا أتذكرها في هذا الجحيم، في هذه الساعة من ساعات بعد الظهر، في هذا البار ـ الملجأ؟ ألأن امرأة أُخرى جالسة قبالتي تعيد مشهد الصرخة، أم لأن مناماً أخرجها من منام هذا الفجر؟ لا أعرف كما لا أعرف تماماً لماذا أتـذكر أُمي، ودرس القـراءة الأُول، وفتاتي الأُولى تحت شجرة الصنوبـر، وعقدة النـاي التي لاحقتني خمسة وعشـرين عامـاً. تعود الدائرة إلى نقطتها الأُولى...

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة..

لا تقضمني كتفاحة، فلنا هذا الليـل كله. خذني إلى استـراليا حيث لا أحد منا هناك، لا أنت ولا أنا.

كانت تضع الحطب في الموقـد. كانت الأُغنيـة تعيد الأُغنيـة ذاتها: سـوزان تأخـذك إلى النهر. الكلمـات الجميلة، والصوت لا يغني بقـدر ما يقرأ شعراً لا يصل إلى أي مكان. إنسـان وحيد في البـراري. إنسان يقـول ليتماسك، ليحمي نفسه من العزلة، ليدل نفسه على نفسه.

متى تقبلني؟

عندما أُصـدق أن في وسعي أن أصدق أن هـاتين الشفتين مفتوحتـان لأجلي..

إذن لمن؟

لصوت قادم من كـوكب بعيد. أتعـرفين أن في وسع عينيـك أن تُلَوِّنا أي ليل بأي لون تريدين؟

قبلني!

مطر خلف الزجاج، وجمر داخل الزجاج. لماذا تمطر. إلى هذا الحد؟

لكي تبقى فيّ..

تتوالد الشهوة من الشهوة. مطر لا يتوقف. نار لا تنطفىء. جسد لا ينتهي. رغبة تضيء الظلام والعظام. ولا ننام إلا ليوقظنا عطش الملح إلى العسل، ورائحة البن المحروق قليلاً على اشتعال الرخام. بارد وساخن هذا الليل. ساخن وبارد هذا الأنين. ويكويني حرير لا يتجعد بل يشتد كلما احتكّ بمسام جلدي وصاح: الهواء إبر من لعاب دافىء بين أصابع قدمي، وعلى كتفي أفعى من الكهرباء تزحف وتشرئب على الجمر. وفم يلتهم هبات الجسد، ولا يبقى من اللغة غير صراخ الغرف الموصدة على حرب الحيوانات الأليفة. وعرق يُبَرِّد الهواء ويجفل..

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة.

□ □ □

الساعة الخامسة بعد الظهر هنا. ناديت النادل: أعطني مزيداً من البيرة. هل مر «س»؟ لم أره من يومين. والسحلية؟ سألت عنه وذهبت. وأُستاذ اللغات السامية القديمة؟ لم يأت بعد. والشاعر الممتلىء بفراغ فصيح؟ ذهب منذ قليل. وأُستاذ الأدب الإنجليزي في الجامعة الأميركية؟ مر في الصباح. والقائد المتقاعد؟ لم يأت. ووفد الهلال الأحمر الدولي؟ يأتي ويذهب. أعطني مزيداً من البيرة. أين النادل الباكستاني؟ يأتي في الليل.

لعل المرأة الجالسة، قبالتي، لاحظت ما أسرق من ساقيها، فمدّدتهما، سلطتهما على عطش رغبتي. وطلبت مزيداً من البيرة.

□ □ □

الساعة الخامسة صباحاً يا عزيزتي.

قالت بدعابة: وهل ينعس العربي؟ أما أنا فلا أُريد أن أنام.

قلت: نعم، ينعس العربي ويحاول أن ينام.

قالت: نم. وسأحرس نومك.

قلت: سيوقظني لَيْلَكُ نظرتك الصافية. هل تعرفين أن عينيك تدفعان أي ولد شقي إلى عبادة الهدوء؟

قالت: وماذا تفعلان بالرجل؟

قلت: تدفعانه إلى الفروسية.

قالت: نَمْ.

قلت: هل تعرف الشرطة عنوان هذا البيت؟

قالت: لا أَظنُّ ذلك، ولكن الأمن العسكري يعرفه. هل تكرهُ اليهود؟

قلت: أُحبك الآن..

قالت: ليس هذا جواباً واضحاً.

قلت: وليس السؤال واضحاً، كأن أَسألك: هل تحبين العرب؟

قالت: ليس هذا سؤالاً.

قلت: ولماذا كان سؤالك سؤالاً؟

قالت: لأن فينا عقدة، ونحتاج إلى إجابة أكثر من حاجتكم إليها.

قلت: هل أنت حمقاء؟

قالت: قليلاً ولكن لم تقل لي إن كنت تحب اليهود أم تكرههم!

قلت: لا أعرف، ولا أُريد أن أعرف. ولكنني أعرف أنني أُحب مسرحيات يوربيدوس وشيكسبير، وأُحب السمك المقلي، والبطاط المسلوقة، وموسيقى موزارت، ومدينة حيفا، وأُحب العنب، والمحاورات الذكية، وفصل الخريف، ومرحلة بيكاسو الزرقاء، وأُحب النبيذ، وغموض الشعر الناضج. أما اليهود فليسوا سؤالاً للحب أو المقت.

قالت: هل أنت أحمق؟

قلت: قليلاً.

قالت: هل تحب القهوة؟

قلت: أُحب القهوة، وأُحب رائحة القهوة..

نهضت عاريةً حَتى منّي، فأحسست بوجع مَنْ خلعوا عضواً من أعضائه.

صَمَتُّ: تعالي فوراً، عودي من رائحة القهوة، فأنا ناقص، ولا أستطيع لا أستطيع.

- ماذا دهاك؟

- هل انتهى كلُّ شيء؟

- ماذا دهاك؟

- لا أستطيع العودة إلى نفسي..

[وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة].

- خذني إلى استراليا.

- خذيني إلى القدس.

- لا أستطيع.

ـ ولا أستطيع الرجوع إلى حيفا. بماذا تحلمين عادةً؟

ـ عادة لا أحلم. وأنت بماذا تحلم؟

ـ بأن أتوقف عن حبك.

ـ هل تحبني؟

ـ لا. لا أُحبك... هل تعلمين أن أُمك سارة قد شرّدت أُمي هاجر في الصحراء.

ـ وما ذنبي أنا. ألهذا لا تحبني؟

ـ لا ذنب لك، ولهذا لا أُحبك... أو أُحبك.

عزيزتي، جميلتي، ملكتي، الساعة الآن الخامسة والنصف صباحاً، وعليَّ أن أعود إليهم.

ـ لمن؟

ـ إلى شرطة حيفا لأُثبت وجودي في الثامنة صباحاً.

ـ تثبت وجودك؟

ـ وفي الرابعة بعد الظهر.

ـ وفي الليل؟

ـ يأتون، في أي وقت بلا موعد، ليتأكدوا من وجودي..

ـ وإذا لم يجدوك في البيت؟

ـ سأكون مسؤولاً عن أية حادثة تقع في هذه البلاد، من مرتفعات الجولان حتى قناة السويس.

ـ وما هي العقوبة؟

ـ مجرد غيابي عن البيت ليلاً يساوي اعتقالاً لمدة خمس سنين على الأقل. أما إذا وقع حادث أكبر، فإن العقوبة هي السجن المؤبد على الأقل.

ـ وماذا ستقول في المحكمة؟
ـ سأقول: كنت هنا. أحيا نشيد الأناشيد.
ـ مجنون؟
ـ مجنون. . .
ـ ولا تحبني؟
ـ لا أعرف.

[وكلانا يقتل الآخر تحت النافذة. .]

□ □ □

. . . وهناك، في الركن القصيّ، أرى الفرس الطالعة من مدائح العرب. فرس تشاكس المجهول. فرس تشاكس اللغة. فرس تنبثق من قطرة الضوء المتلألئة على حقل تفتحه ذبذبةُ وَتَرَيْ چيتار يُنادي أعراس الفرسان القتلى. القباب والمآذن والأبراج والمدى تتبع ظلّ العاشقة الذي يتبع جهة الرمح المتوتر. سأدير ظهري للخناجر كي أُلامس طحلب المانجا وأسقط في علو الموت الشاهق محروساً بالنعناع والشظايا التي لا تسمح لأحد بالاقتراب من الفضاء المفتوح لخطوتين: الحب أن ترددي. والحب أن أسخى بمزيد من حيوانات الروح. والحب أن لا أسمع منك غير الأنين. للهواء أن يتحول إلى مادة صلبة. وللبحر أن يهدد. ولك أن تلقي بعتاد الجسد الخائف إلى أقصى الخوف لنأمن هذا الباب الخشبي الهش. إصعدي مائة واثنتي عشرة درجة كي يتصبب لهاثك صهيلاً يتعب وكي أمسح العرق بجلدي المنذور لهذا الواجب. سأدعوك «ج» لأنك مطلع الجنون، ومطلع جهنم، ومطلع الجنة، ومطلع جميع الشهوات المنتصرة على حرب بجماع لا يتحقق إلا في الخوف من الموت. دعي ابنتك تلعب

مع أستاذ الكيمياء. وتعالي إلى مرصد الصواريخ لنرصد ما في الجسدين من قطط. قدمُك مصقولة كحجر في شتاء الجبال، حجر يندس في خاصرتي لأصرخ نبيذاً من خوابي الأديرة، ولا أصرخ كي لا تظنّي أن شيئاً غير الحصار يوجع. ولا أردُّ التحية لأني تواطأت مع قصتي على رغبتي من أول خصلة شعر كسرتني. فللشهوة أيضاً قناع، لتطول اللعبة عاماً آخر. تعبت من قناعي، ومن لعبتي، ومن تعبك. فلا تدقي بلاط الشارع أكثر بصهيل يحفرني. تعبتُ من حوادث سير لا تليق بهذه الحرب كأن ترتطم كتفي اليُسرى بكتفك اليسرى في تقاطع صبيانيّ المشهد. ومن العار أن نموت حُبّاً في زمن الحرب. هل أحبك؟ لا أُحبك إذا كان الحب يستغرق وقتاً أطول من إطلاق رصاصة على نخاع شوكي. وأُحبك، إذا كان الحب امتثالاً لصاعقة برق تضربني الساعة: تعالي لنعرف الجواب. تعالي لنسأل السؤال. فما على المحاصرين في هذا الركن الأخير من العالم غير أن يُعْتقا جِنَّ الشبق من سجن الكلام والذهب. ومن الظلم أن نهاجر بلا التصاق. من الظلم أن نُرجع النظرة من منتصف الطريق إلى عيون تصب العسل على النار. عيناك تجرحان الحجر وتذيعان في دمي دبيب النمل، فمتى أجمع هذا النمل وأُعيده إليك، إلى بيت النمل، لأتوقف عن حكّ دمي بنظرات الساق على الساق. أُخرجي من هذا الباب إلى اليسار، ثم انعطفي إلى يمين آخر. هناك شجرة زنزلخت كبيرة، شجرة وحيدة ستدلُّك على ساحة صغيرة.. اقطعيها واتبعي رائحة الهال إلى مدخل البناية كما يتبع كلب البحر رائحة الدم. اتبعي صوت دمي، واصعدي مائة واثنتي عشرة درجة. ستجدين الباب مفتوحاً، وستجدينني خلف الباب مشوياً من الانتظار، جاهزاً للموت واقفاً معك واقفاً فيك حتى يفصلنا صاروخ لنجلس. دقّي حجر السلالم كما يدق كعبك العالي طرف القلب

ويترك قطعة صغيرة منه لكلاب الشارع. كم أُحب الحذاء العالي لأنه يشد الساقين في كلية الأُنوثة المتأهبة للاندلاع. والحذاء العالي يختصر البطن ويفتح انحناءة لبطن ينكمش من عطش. والحذاء العالي يدفع النهدين ليتكورا ويشرئبا على المارة المحرومين مما يهتفون. والحذاء العالي يصُبُّ القدمين في أُهبة الرقص فوق الدخان المتصاعد من رغبة محروقة. والحذاء العالي يتلع الجيد كلحظة انقضاض الخيول على هاوية. والحذاء العالي يوقف الرمح على منبر من سواء صلب. دُقّي بلاط الشارع بنفور غزال لا تتلقفه ذراعان ولا كلمات. واتضحي رويداً رويداً خلف الباب المغلق. أمام الباب مقعد جلدي صغير يحملنا ويتسع لنا. سأجلس أولاً وتجلسين. فغرفة النوم مكشوفة من جهة البحر الذي يرانا، ويتوعد، ويقصف. وغرفة الاستقبال مكشوفة من جهة البحر. وغرفة المكتبة مكشوفة من جهة البحر. ولم يبق لنا غير هذا المقعد الصغير، ارتجفي وانتفضي وانقصفي، ولا تنزعي ثيابك لئلا يرانا الموت عاريين. فرس على حضن رجل. لا وقت لغير الحبّ السريع ونزوة الخلود العابر. لا وقت للحب في حرب لا نسرق منها غير امتصاص مصادر الحياة. أمن طبيعة الحرب أن تخلق الشبق؟ أمن طبيعة الخوف من الموت أن يتوتّر هذا التوتُّر؟ يدان تخرمشان الحائط لمنع القطط من الرحيل. وفم مفتوح لأصوات البراري الموحشة لإغراء الذئاب. وأُحب هذا الحب الذي لا ثرثرة فيه ولا أناقة كلام وارتداء ثياب على مهل وعلى مهل. لا وقت لذلك الطقس الذي يُبدع الغربة وتباطؤ الخروج من العناق، فنهرب إلى سيجارة ندعي تأمّل ما ترسمه من دوائر الدخان الأزرق. وننظر إلى الساعة لا لنرى الوقت بل لنعرف متى يتسلل أحدنا من الآخر. وأُحب هذا الحب الذي لا يترك وجعاً في الذكريات ولا ندبة في الروح. حب يُزَوّد الروح بهبوب الفراش على

وردة الروح. لحظة عابرة أبقى وأنقى جمالاً من بيروقراطية الحب الطويل المحتاج إلى إدارة شؤون المواعيد وصيانة الحنين من العطب. نزوة هي مجال الشاعر في التباس التشابه بين المرأة والأغنية. نزوة هي حرية الصمت المتحرر من آخر ينقلب الصمت معه إلى غربة. عالمان لا يتداخلان إلا بغير القمع. لا مساومة في العاطفة. عالمان يعودان ـ حين يصمتان ـ إلى ما كان من ذكريات لا تتصالح بقدر ما تتصادم. وأحب الحب على هذا المقعد الذي لا يحتاج إلى إعادة ترتيب لأنه لا يتجعلك، كما كنت أُحبه على ظلام صخرة على شاطىء بحر، أو في سيارة تختبىء في غابة صفصاف، أو في قطار ليلي لا نعرف فيه الأسماء، أو في رحلة طيران ليلي طويلة، أو على سياج ملعب يصفق فيه الجمهور لخطاب يشارك فيه العاشق العابر العاشقة العابرة الرقص والهتاف على نداء أوجٍ آخر. أحب هذه اللحظات النزوات المتحررة من الكلمات والواجبات، ولكن الحرب تضفي تصوفاً شهوانياً على هذا الاختلاس الرائع. فما أجمل أن نتغلب على الحرب فينا بهذا الخوف الذي يوحّد الجسدين. وما أجمل أن نودِّع أيامنا على انفتاح وردة تعرق وتشهق وتتمزق من احتكاك الندى والملح، تحت قصف جوي وبري وبحري نسوس فيه مسار اللذة المستقيم صعوداً، ساخرين من عواء الحديد بعواء اللحم والدم والعصب المشدود. فلا تسأليني إن كنت أحبك أيتها الفرس الطالعة من مذائح العرب. أيتها الفرس التي تترجّل عن حضن فارسها لتذهب إلى مهرتها الصغيرة، التي ترعى بين الصواريخ وأقداح البيرة وأستاذ الكيمياء والممرضات النبيلات القادمات من اسكندنافيا لاستبدال الموت احباطاً وغمّاً بالموت في قضية. لا تسأليني إن كنت أحبك، لأنك تعرفين كم يعبدك جسدي الباحثُ عن سلامته في جسد. خذي خبزاً وزجاجة ماء. ستزورين قصيدتي يا «ج»

لأنـك لم تذهبي معي، كمـا ذهبت السوسنـةُ الطالعـة من نشيد الأنـاشيد. ستزورين قصيدتي يا «ج» لأنك اختفيت كما اختفت. وستخرجين من منـام يخرج من منام يا «ج» كما خرجت السوسنةُ هذا الفجر. . . .

□ □ □

. . والقصف يقصف كـل شيء، يقصف حتى الخـوف. أفكـر في هذا الركن القصي بهذا الشاب البـاكستاني الغـائب. ما الـذي جاء بـه إلى هذه المدينة من آسيا البعيدة؟ كان يطارد الرغيف فاصطاده الرغيف في هذا الحصار. استدرجه الرغيف من لاهور، جعله يلهث آلاف الكيلومترات كي يلامس هذه المعجزة الإنسانية: رغيف الخبز، رغيفْ الخبز الذي قـد يقتله في حرب لا شأن له فيها، فلا يعود حياً أو ميتاً إلى أي مكـان، لا يعود إلى أي قبر. باطـل الأباطيـل والكل بـاطل. وأفكـر في الطرائق المعـدة لنهايـة جسد كافح حتى النضج ليحترق أو ليختنق. باطل الأباطيل، والكل باطل. وقـد علمتنا معـاشرة المـوت أن المـوت لا صـوت لـه. إذا سمعت صـوت الصـاروخ فـذلـك يعني أنـك حي، ذلـك يعني أن الصـاروخ قـد أخـطأك وأصـاب غيرك، أصـاب العامـل الباكستـاني على سبيل المثـال. الصاروخ يسبق صوته. إن لم تسمع صوته فاعرف أنك مت. باطل الأباطيل والكـل باطل. ولكن ما سر هذه المناعة؟ أشعر بنعاس لا يقاوم. . نعاس أقوى من أية قوة. . نعاس سلطان. .

ولكن «س» يوقظني. أراه مدججاً بمسدس طويل، ومتكئاً على لعبته العاطفية. أين كنت؟ أين كنت؟ إجلس معي إذا استـطعت أن توقف ثـرثرة السيدة، أو ارسلها إلى أي جحيم.

ـ أين اختفيت؟

ـ على إحدى الجبهات.

ـ ما هي أخبار الشباب؟

ـ صامدون. ولا يهتمون بنتائج المعركة. إنهم صامدون ويقاتلون. ولكن الناس تعبت ويقال إن صمودهم مرتبط بخروجنا. هل صحيح أننا سنخرج؟

ـ طبعاً.. سنخرج. ألم تعرف أننا سنخرج؟

ـ كنت أظن أن الخروج مناورة. هل سنخرج حقاً؟

ـ سنخرج حقاً.

ـ إلى أين؟

ـ إلى أي مكان عربي يقبل بنا.

ـ ألا يقبلون حتى استقبالنا خارجين؟

ـ بعضهم لا يقبل حتى جثثنا. وأميركا تطلب من بعضهم الموافقة على استقبالنا.

ـ أميركا؟

ـ نعم.. أميركا.

ـ هل تعني أن هذا البعض يريدنا أن ننتحر ونبقى في بيروت؟

ـ هذا البعض لا يتحمل صمودنا. ولا يدعونا إلى الانتحار أسوة بالكولونيل الليبي ولا يريد لنا أن نبقى في بيروت، أو في أي مكان على الأرض. يريد لنا أن نخرج.. أن نخرج من العروبة ومن الحياة.

ـ إلى أين؟

ـ إلى العدم!

ـ ومتى سنخرج؟

ـ بعدما نحصل على عناوين للخروج. وبعدما نحصل على ضمانات بحماية المدنيين الباقين هنا، وبحماية المخيمات.
ـ أهناك ضمانات؟
ـ هناك ضمانات وقوات دولية ستصل لحماية المخيمات. ولكن السفير الإيطالي قال لي، البارحة، كلاماً مثيراً للقلق. قال: لا أحد يضمن ألا يدخل الإسرائيليون بيروت بعد خروج المقاومة.
ـ ألا يمكن إخفاء فكرة الخروج، لأنها قد تؤثر على معنويات المقاتلين؟
ـ هذا صعب لأن المفاوضين يذيعونها. والدولة اللبنانية متلهفة بحجة أنها تطمئن المواطنين.
ـ ولكن، لماذا سنخرج؟
ـ لا أحد يوافق على بقائنا، لا الداخل ولا الخارج، ولا تنسَ أن البلد ليس بلدنا. انتهت مُدَّة الضيافة. وبعض أطراف الحركة الوطنية يُهددنا. ولم يبق ما نعتمد عليه: لا مقومات داخلية، ولا مدد خارجي.

كان «س» أشد الناس قلقاً من هاجس الخروج، فهو يخشى اليُتم الجديد، يخشى أن ننساه في زحام هذه النهايات. كان واحداً من مئات الكتّاب المهاجرين إلى مشروع الثورة المتحول إلى بيت وهوية. لا يملك ما يدل عليه، لا بطاقة هوية ولا جواز سفر، ولا شهادة ميلاد. ولهذا وجد فينا أهله ووطنه، نحن الذين لا أهل لنا ولا وطن. وكان مع المهاجرين السوريين والعراقيين والمصريين والفلسطينيين قد أنزل على بيروت معاني نهائية تمنح التباس العلاقة بها شرعية حق المواطن إلى درجة أجفلت الكثيرين من اللبنانيين الذين يعرفون مدينتهم ومجتمعهم أكثر منا، ويعرفون

أنها لا تحتمل هذا الإسقاط. وقد لاحظ بعضهم أن السهولة التي يوحي بها التعامل مع بيروت، نصاً مفتوحاً للصراع والكتابة، قد بلغت هامشاً من الرهافة يستحق الحذر. ولكن بيروت هي المكان الذي شهد ازدهار التعبير السياسي والإعلامي الفلسطيني. وبيروت هي مهد آلاف من الفلسطينيين الذين لم يعرفوا مهداً آخر. وبيروت هي الجزيرة التي طفا عليها المهاجرون العرب الحالمون بعالم جديد، وهي حاضنة ميثولوجيا البطولة القادرة على تقديم وعد آخر للعرب غير وعد حزيران. فكان كل واحد يُمسك بما يعنيه من اسم بيروت الذي فتن الجميع إلى حد ارتكاب أخطاء لم ينجُ منها أحد، ودون أن يتمكن أحد من تحديد المعنى الشامل لهذا الافتتان. وهكذا تحولت العلاقة ببيروت إلى إدمان جعل اللغة مجازية إلى درجة المواطنة، في غياب الدولة التي قهرت مواطنيها في كل مكان آخر، مما جعل استباحة الدولة، أية دولة في هذه الدولة، أحد أشكال التدرب العربي على ديموقراطية متخيلة. فصارت بيروت مُلكَ من يحلم بنظام آخر في مكان آخر، واتسعت لصياغة فوضى ذات جانب تعويضي حلت في كل غريب عقدة الغربة. وصارت شرعية الانتماء إلى بيروت انعكاساً لشرعية المعارضة لنظام البطش العربي، فلم يعد على اللاجىء إلى بيروت واجب مراعاة نظامها المفكك، بل أباح لنفسه حق التحالف الداخلي لمواصلة تفكيكه خدمة لمشروع ديمقراطي أكبر يخاطب خارج بيروت أكثر مما يخاطب داخلها. ومن هنا، أحسّ المقيمون في بيروت، في تحالفهم مع أطراف قواها المتصارعة، بمقاييس أخرى للغربة والمواطنة حُدد فيها للبنانيين أنفسهم وبمساعدتهم مقدار حقهم في وطنهم، لأن الوطن تحول من جمهورية إلى مواقف. وفي الشعر أيضاً، لم يكن عُشّاق بيروت لبنانيين. وحين أنشد الرحابنة للوطن لم ينشدوا لبيروت. كانت أغنية

الحب الطالعة من الحرب «بحبك يا لبنان». لقد تم استثناء بيروت لأنها لم تعد بيروت لبنان. ليست بيروت، في الاعتبارات الطائفية، لبنان. بيروت صارت عربية يغني لها العرب. وصار في مقدور شاعر لبنان سعيد عقل أن ينأى بلبنان الجمالي إلى أقصى غابات العنصرية، ليرى أن الحرب لا تدور بين «جيش لبنان وجيش فلسطين» فحسب، بل إنها حرب شعب بأسره.. «الطفل الفلسطيني عدو».

«س» وآخرون كوّنوا بيروتهم؛ صاغوها على صورتهم. وبلا مجاملة دخلوا في النسيج الداخلي للصراع الثقافي. وحين انفض عنهم حلفاء الثقافة وجدوا أنفسهم تحت العراء.

لقد سبق الغزو الإسرائيلي عودة الكثيرين من المثقفين إلى أصدافهم الإقليمية، تعبيراً عن انهيار المشروع العلماني، وعن نزعة المثقف إلى الاحتماء بالطائفة في عراء الهزيمة الملوحة في الأفق.. جرت إعادة اصطفاف طائفي احتلت فيه الطائفة الممتازة مكانة النموذج. وقفز بطل الطائفة، الخارج من قاع الجريمة، إلى بطل منذور لسائر المعبرين عن طوائف أخرى تحتذي استلابها، فتسابق شعراء البديل السابق، إلى إيوان الشرقية للحصول على صك غفران في محبة لبنان ممن أتقنوا ارتداء القناع الفاتن «تحرير لبنان من الغرباء». لقد احتاج الخراب إلى دولة، واحتاج الخائفون إلى أية دولة. فازدهرت الحياة الثقافية في المنطقة الشرقية المرشحة لتوحيد الوطن، وازدهر كازينو لبنان بعروضه الفنية التي لم ينقصها غير فرقة الرقص الليبي المحاطة بدويّ إعلامي صاخب. ولم يتساءل أحد عن المغزى السياسي للهفة الكتائب على الرقصات الليبية، فقد كان المغزى شديد السخرية والوضوح.

وحين سجل «س» ملاحظة «الكرمل» على عودة بعض المثقفين من المشروع الديموقراطي إلى الصدفة الطائفية، حولونا إلى «سُنَّة» وانهالت علينا الحملات والتهديدات من الشعراء والرسامين والمسلحين الذين اعتبروا نقد عودة المثقف إلى الطائفة تشهيراً منا، كمعبرين عن طائفة، بطائفتهم. وحين كنت أقسم بأنني لا أعرف ما هي طائفتي لم يصدقني أحد، لأن الوباء كان قد استشرى، ولأن أي فهم لما يجري في لبنان خارج حدود الفهم الطائفي هو فهم قاصر. كان «س» يحمي كتابته بعضلاته، فواصل زيارة مقاهي شارع الحمراء ومقارعة الحجة بتحسس المسدس. أما أنا، المشاع للحملات الصحافية، فلم أنجح في تبرئة نفسي من جريمة القول إننا «جزء.. لا جزيرة».

«.. التجربة مفتوحة على حوار الإبداع والأفكار. فنحن ما زلنا نحاول ملامسة التطبيق العملي لخيارنا الوحيد: الإبداع في الثورة، والثورة في الإبداع، لنتجاوز التجني الذي يرتكبه الميل العام إلى المناداة بالاختلاف، أو الخلاف، بين مفهومي الثورة والإبداع، حيث يحاول أحد أطراف هذا الميل تحقيق الطلاق بين اللغة الأدبية وبين الواقع لبلوغ «الأدب الصافي». ويحاول الطرف الآخر جر الأدب إلى تقديم الخدمات اليومية المباشرة للبرنامج السياسي. نحن نتاج هذا الواقع وهذا الزمن الذي تختلط فيه الانهيارات الواضحة بالولادات الغامضة، ولا نتوب عن أحلامنا مهما تكرر انكسارها، ولا نواجه الأزمات التي تلتف حولنا بإسقاط الفكرة، وبالنزهة في الماضي والتراث. لأننا لا نكتفي فقط بتحديد المساحة بين الدم والنفط. فقد اخترنا أن نعتقد أن المستقبل يولد من هذا الحاضر، بالطريقة التي ننخرط فيها في عملية التغيير. ولا يأتي من ماض يتحول في

الأزمات إلى سيد الأيام. وحين نلاحظ أن الثورة لم تكتب بعد أدبها إلا بالجسد، فإننا ندرك أن معادلة الفعل ـ القول المترابطة في سياق التجربة تنضج لتنتج الأدب الجديد. وندرك أننا جزء من الثقافة العربية الوطنية لا جزيرة فيها. لذلك لم نقبل أن يكون صوتنا هو صوت الهوية الضيقة، بل ميدان العلاقة الأعمق بين الكاتب العربي وزمنه الذي تتخذ فيه العملية الثورية الفلسطينية شكل كلمة السر العلنية حتى الانفجار العام. إننا لا نؤسِّس تياراً في الأدب بقدر ما نشير إلى سياق أو مجرى كبير يعطي مفهوم وحدة الثقافة العربية الوطنية شكلاً من الأشكال، في وقت يتعرض فيه إلى أكثر من محاولة تفتيت أو وأد، وهي الثقافة المفتوحة على تاريخها في تعدد مصادره. وهكذا لا نقول إن الشرق شرقي كله، ثقافياً، وإن الغرب غربي كله. فنحن لا نعرف شرقاً واحداً ولا نعرف غرباً واحداً، ولا نريد أن نُحبَس في معنى لم نختره بحرية. وهكذا لا نتعامل مع حملة التصدِّي للغزو الثقافي الرائجة في هذه الأيام، بعدما أطلقها كراس أو كراسان، إلا بقدر ما تستطيع هذه الحملة التمييز بين المصطلحات، وتحاشي الوقوع في بئر تغلق علينا الأفق كله، وبقدر ما توضع في سياق البحث عن استقلال يرفض التبعية ويرفض التآكل معاً. وحين نرى إلى انحطاط بعض مستويات الثقافة، وهيمنة الطفيليات الطائفية عديمة الكفاءة والموهبة على غذاء الناس اليومي أو الاسبوعي أو الشهري، فإننا لا نعلق: هنا الأزمة فاهربوا... بل نضع الظاهرة في عنوانها السياسي، وننتبه.. ننتبه إلى أسلحة الأدب القادرة على إخفاء خيانتها وادعاء القداسة وهشاشة الأحلام تحت غطاء الاشمئزاز من السياسة، أي من الصراع. لا، لسنا غرباء على أية أرض عربية. الغرباء هم الذين يشيرون إلى غربتنا بأصابع اتهام، لأنهم غرباء عن تاريخهم وعن معاني وجودهم، غرباء في موجة عابرة لا يرى

فيها اللص غير وجوه اللصوص. وإذا كنا لا نستطيع مجاملة السلفية فإننا لا نـرضى الاستقرار في فـوضى التجـريبيـة التي لا تـريـد أن تقـول أكثـر من تجريبيتها. وإذا كنا نشكو التقصيـر من القدرة على اتقـان لغة النـاس، في العملية الإبداعية، فإن ذلك لا يمنعنا من الإصرار على التعبير عنهم لنصـل إلى لحظةٍ يحقق فيها الأدب عرسه الكبير، حين يصبح الصوت الخاص هو الصـوت العام. نعم، إن لـلأدب دوراً. . وإن انقطاع التفـاعـل بين النص وبين الذين يتحول النص ـ فيهم ـ إلى قوة، هو اغتراب الأدب الذي يصفق لـه الآن المبشرون بـالهزيمـة النهائيـة لكل شيء. وهنـا نستصـرخ النقـد، نستصرخه ليستـرد الإيمان بشجـاعته وجـدواه، نستصرخـهُ ليدخـل الساحـة المستبـاحة، نستصـرخهُ ليـرسي المعاييـر التي أباح غيـابها للجهـل وللثورة المضادة أن يتبطّنا في ادعاء الحداثة. نـدعو النقـد إلى إعادة النـظر، على سبيل المثال، في حركة الشعر العربي الحديث التي اتسعت لشن الحروب كلهـا ووصلت إلى مفترق طـرق أعلن، على الأقل، انهيـار وهم وحـدتهـا السابقة. وندعوه إلى تمزيق حصانة النص الشعري الذي لا يقبل أداة النظر فيه خارج أدواته، فيما يُحمِّـل نفسه بكـل ما هـو خارج ادعـائه من حمـولة ايديولوجية يحتكـر اخفاءهـا. ويحرم النـاقد أو القـارىء من حق إعلانهـا. ولنسأل عن دكتاتورية النص. لقد أوصلنا الحيـاء أو الجهل إلى درجـة صار معهـا التقدم يخشى الإعـلان عن نفسه. وأدنى من ذلـك: صارت سـلامـة اللغة تخلفاً. واستقامة الوزن رجعية. وصـار الوضـوح عورة. وصـار القول ووصول القول همجية. وباختصار: تقدمت الـرجعية القـادرة على الوقـوف يساراً بكامل عدة الحداثة الشكلية، حافلة بمعاني السلفية. واستـطاعت أن تستدرج الآخرين إلى أسئلتها في مرحلة انتكاس المعاني العـربية الكبيـرة، وعودة أبناء الـطوائف الضالّين إلى طـوائفهم، أو تصوفهم، أو رمـوزهـم. .

معلنين التوبة عن عمر أضاعته حركات التحرر التي لم تُسفر إلا عن صعوبات لم تكن متوقعة، وأضاعتهُ الثورة التي دلت على أنها باهظة التكاليف، في مرحلة اجتياح «الثقافة» النفطية أغلبية المنابر والمؤسسات الثقافية والإعلامية، غير مكترثة بإعلان فارقٍ جوهري بين مستوياتها وإيديولوجية مصادرها، لأن تدمير الثقافة والمثقفين هو النتيجة الوحيدة الواضحة لظاهرة «رعاية» النفط للثقافة. هكذا تتحدد صعوبة المعركة التي نخوضها في سؤال الأدب، وهي انعكاس مباشر أو محوًّر لهجوم الرجعية السياسي والفكري التي لا تفتقر إلى أسباب الإفادة من فشل «رجعيات التقدم». وحين نكتب ونستكتب شعار حرية الإبداع فإننا لا نستقطب غير نقاط الضوء والبدايات التي بعثرها الانقسام حول فكرة أبسطُ مقوماتها: أننا نريد أن نحرر أنفسنا، وبلادنا، وعقولنا، وأن نعيش عصرنا بجدارة وكبرياء. وما دمنا نكتب فإننا نعبر عن إيماننا بفاعلية الكتابة. من هنا، لا نشعر أننا أقلية. نعلن أننا الأقلية ـ الأغلبية. ونعلن أننا قادمون من هذا الزمن.. لا من الماضي ولا من المستقبل».

لماذا أصابهم هذا الكلام بالهستيريا؟

لأنهم يريدون لنا أن نكون جزيرة محاصرة..

سألني «س» للمرة العاشرة: إلى أين سنذهب؟

قلت: لا أعرف. إن هناك ضابطاً في غرفة العمليات لتحديد العناوين وأسماء المهاجرين.

قال: رُبما ينسونني.

قلت: رُبّما..

خاف. خاف إلى درجة نَهَر معها امرأته الثرثارة التي تعرف كل

شيء، وتمتلك جواباً لأي سؤال: إخرسي! قالها بانجليزية كردية جعلتها تصمت لمدة عشرين ثانية كاملة، واصلت بعدها ثرثرتها. إنها راديو مفتوح لا يكترث بالمستمعين. إنها أقسى من حصار. كان يطفىء أسئلة ضياعه في وهم غرابتها. كان يستوطنها قارباً أو ملجأ. كان ينتمي فيها إليها، إلى ما يُسند الغربة بالغربة، ريثما يعرف أين هو.

وجدت له حلاً: إبق معي.

استبشر خيراً: أين؟

قلت: هنا في بيروت.

صاح: هل أنت باق؟

قلت: نعم. باق.

قال: ولكنني لا أحمل جواز سفر ولا بطاقة هوية. مُزَوَّرَة كل أوراقي مزورة. فكيف أبقى، وإلى أين أذهب؟

قلت: أين تريد أن تذهب. . السودان، اليمن، سوريا، الجزائر؟

اختار: الجزائر.

قلت: سترحل إلى الجزائر.

قال: هل تعلم أنني لم أسافر مرة واحدة في حياتي؟

قلت: ستسافر كثيراً، يا بني، ستسافر كثيراً.

في هذا البار الصغير، شربنا في السنين الفائتة، وفي هذا الحصار، شربنا من عصير الشعير ما يجعل الحمير تنطق شعراً.

ـ بالمناسبة، أين المثقفون الغاضبون منا؟ لم نسمع أصواتهم منذ بدا الغزو؟

ـ لقد ذهبوا إلى الجنوب.

ـ ليقاتلوا الغزاة؟

ـ لقد اشتاقوا إلى عائلاتهم. وقد يصبح بعضهم شعراء أرض محتلة، أو شعراء مقاومة.

ـ ألا يزالون يعانون من هذه العقدة؟

ـ ولن يخلصوا منها.

ـ إذن، لماذا يحذفون المثال؟

ـ ليكبروا، ليقتلوا «الأب» ويستقلوا..

ـ هل تتوقع تحولاً في كتابتهم؟

ـ لا أتوقع شيئاً.

ـ ولكنهم أبرياء وطيبون.

ـ وأسرى نموذجيين متناقضين.

ـ سيكبرون في التجربة.

ـ في الطائفية لا يكبر أحد.

ـ ليسوا طائفيين. هم يتامى وخائفون. والطائفية موجة حماية عابرة.

ـ إذن، لماذا يستقوون علينا؟

ـ لأننا غرباء.. ولأن الدولة بدأت عملية تكوُّنها. سينتخب الإسرائيليون بشير الجميل رئيساً للدولة.

□ □ □

.. يا سيدة لبنان، احفظيه لكل لبنان. الدعاء الخافت ينتشر كالخيمة النبوية، كالسقف مرفوعاً على الدبابات الإسرائيلية، والعادة الإسرائيلية السرية تتحول إلى زواج علني. والإسرائيليون يتمددون على شاطىء جونيه. وبيغن يلتهم، في عيد ميلاده، دبابة «مركباه» مصنوعة من

الحلوى، ويدعو إلى توقيع معاهدة سلام، أو تجديد المعاهدة القديمة بين إسرائيل ولبنان. ويعاتب أميركا: لقد أهديناك لبنان. . .

ـما هي هذه المعاهدة القديمة المرشحة للتجديد؟

إن بيغن لا يعيش في زماننا، ولا يتكلم لغتنا، إنه شبح قادم من عهد الملك سليمان، وهو العهد الذهبي في التاريخ اليهودي العابر على أرض فلسطين، حيث «جعل النقد في أورشليم عادياً كالحجارة. وبنى الهيكل الباذخ على هضبة، وزَيَّنَهُ بخشب الأرز والصندل والفضة والذهب والحجارة المنحوتة، وصنع العرش الملكي من العاج المطلي بالذهب. وأبرم معاهدة مع حيرام ملك صور الذي أمده بالمعادن والعمال الاختصاصيين، واصطاد معه السمك في البحر الأبيض المتوسط. سليمان يبني المراكب وحيرام يُقدِّم له الملاحين. سليمان يبني الهيكل ويحكم بعدما دان له الملك، وتعلم شعبه من الفلسطينيين صهر المعادن وصك الأسلحة، وتعلم الملاحة من الفينيقيين، وتعلم طرق الزراعة وبناء البيوت والقراءة والكتابة من الكنعانيين».

بيغن يتقمص سليمان. يتخلى عن مزايا سليمان، عن حكمته وأناشيده ومصادره الثقافية، ولا يأخذ منه غير العصر الذهبي المرفوع على دبابة. لا يتعلم منه عبرة سقوط المملكة حيث ازداد الفقراء فقراً وازداد الأغنياء غنى. . لا يعنيه منه غير البحث عن ملك صور لتوقيع معاهدة سلام. أين ملك صور؟ أين ملك الأشرفية؟ بيغن يُجمِّد التاريخ عند هذه اللحظة ولا يصل إلى نهاية الهيكل الذي لم يبق منه سوى حائط للدموع، حائط لا يدل علم التنقيب عن الآثار على أنه أحد أبنية سليمان. ولكن، ما لنا ولتاريخ ما خرج من التاريخ؟ فكل شيء بقي على حاله في وعي

ملك الخرافة.. ومنذ ذلك الوقت لم يفعل التاريخ شيئاً في فلسطين وعلى شواطىء البحر المتوسط الشرقية غير انتظار ملك الخرافة الجديد: مناحيم ابن سارة ابن بيغن الذي سيحمي الهيكل الثالث من الغضب الداخلي ومن الغضب الخارجي، بالتحالف مع ملك الأشرفية بشير، ابن بيير، ابن جميل..

□ □ □

فدائيون من حَبَقٍ وحُريهْ
ومنذورون للجمرة
على قرميد أغنيّهْ
على أُسطورةٍ حُرَّةْ
هي الثورة،
هي الثورة..

خنادقهم هواءُ البَحْر
وظِلُّهُمُ يَشُقُّ الصخْر
نشيدُ نشيدهم واحد:
فإمَّا النَّصْر
وإمَّا النصر
ومنهم تُولَدُ الفكرة
هي الثورة،
هي الثورة...

وُلدنا فوق أيديهم
كما تتفتحُ الزهرةْ

فكمْ مَرَّه
وكم مره
سيُولد في ابنه الوالدْ؟
وتحمل غابةً بذرةْ

هي الثورة..
هي الثورة

.. وفي ساعات العصر هذه تتدلى السَماء أكثر، مثقلةً بالرطوبة والدخان والحديد، سماء تصير إلى يابسة. ولا تستطيع المباريات الإذاعية على صوت فيروز، الأثر الوحيد على وطن مشترك، أن تشير إلى شيء وإلى مشترك، لأن الصوت قد انفصل تماماً عن مصدره، رحل عنْ أرضه إلى تجريد أزرق لا يخاطب العاطفة في وقت تحوِّل الحرب فيه كل شيء إلى تفاصيل. أُحبك يا لبنان - إعلان لا تصفق له بيروت المشغولة بشوارعها المقصوفة، المكثفة في ثلاثة شوارع. وبيروت لا تبدع غناءها، فذئاب الحديد المتوحشة تنبح من كل ناحية. والجمالُ المُغَنى له، المعبود، ينتقل إلى ذاكرة تشتبك الساعة بأنابيب النسيان الفولاذية. الذاكرة لا تتذكر بل تستقبل ما ينهال عليها من تاريخ. أهكذا يصير الجمال السابق، الجمال المستعاد في غناء لا ينساب مقام الساعة - جمالاً مأسوياً؟ وطن ينهار ويُرَمَّم في حوار الإرادة البشرية والحديد، وطن يرتفع على حنجرة تطل علينا من السماء، حنجرة وحيدة توحد ما لا يتوحَّد، وتؤلف ما

لا يتآلف. هرب الكلام إلى البعيد، أخذ الكلام كلماته وطار. فليس هذا الصوت عذابنا، ليس صوت الجنون.

وفي ساعات العصر هذه، يعجز البدن عن حمل أعضائه. وتعجز الروح عن الطيران. تتكوم فوق مقاعد الخوف واللامبالاة عاجزة عن الكلام. ونحن نجلس عاجزين حتى عن تبادل النظرات. آب بيروت لا تنقصه نار جديدة. خلفنا مدرسة تحولت إلى مستشفى. تحوم الطائرات بشراسة حول المستشفى. قال استاذ العلوم السياسية القادم من الولايات المتحدة: سنصاب حتماً. فلنهبط إلى الطابق الأول. كان من الصعب إيقاظ «غ» فهي نائمة منذ شهر. ظننت أنها مريضة في الكبد. ولكنهم قالوا. ان الخوف الشديد يدفع الخائفين إلى النوم العميق، النوم المتواصل. إنها تنام وهي نائمة، تصحو وهي نائمة، تمشي وهي نائمة، وتأكل وهي نائمة. غبطناها على نظام الوقاية الذاتي. ولم يكن الطابق الأول أكثر أماناً من الطابق السادس، فلو قصفت البناية لبقينا تحت الأنقاض. تزايدت وتيرة الطائرات وازداد انخفاضها. قلت لأستاذ العلوم السياسية كي نخرج مما نحن فيه: أظن، يا دكتور، أن الجدل حول الجامعة المفتوحة قد انتهى الآن. قال: وانتهت مرحلة كاملة من مراحل العمل الفلسطيني واللبناني الوطني. وأوشكت تجربة المجتمع الفلسطيني الجديد في لبنان على الانتهاء. قلت: ومن أين تبدأ المرحلة الجديدة؟ قال حاسماً: ليس من الصفر كما قد يقال، ليس من البياض، بل من التراكم. لقد أنجزنا الكثير وعلينا أن نواصل تطوير ما هو صالح للتطوير.

لم يعد في مقدورنا تركيب جملة كاملة، وكان علينا أن نُعيد تركيب عناصر تجربة تتعرض للانهيار. لم يكن الرجل موحشاً، كان يعتني بأصوله

القديمة ويفاخر بجذور تعرضت للاقتلاع منذ أربعين عاماً. يأتي من شيكاغو كل عام ليتدفأ بانبعاث شعبه. وقد ملَّ الغربة الطويلة في كلية العلوم السياسية هناك، وسكنه هاجس إنشاء جامعة مفتوحة للطلبة الفلسطينيين في الشرق الأوسط يكون مقرها لبنان. أن تطعن في جدوى الفكرة وقابليتها للتطبيق معناه أن تعتدي على أغلى أحلامه. فيتحول إلى كتلة من الأعصاب للدفاع عن مشروعه. كان المستوى التعليمي ينخفض في الجامعات. ولم يتورَّع بعض الطلبة عن تهديد الأساتذة بالسلاح، للحصول على علامات أفضل. كانوا يدخلون قاعات الامتحان مدججين بالمسدسات. كم من شكوى تلقيناها دون أن يتمكن أحد من معالجة المشكلة بسبب اختلاط الهوية التنظيمية. وقبل ذلك كان الخناق يضيق حول الطلبة الذين لم يجدوا جامعات عربية لاستيعابهم. وكنت أمازح الدكتور: أفي مثل هذا المناخ الذي نعجز فيه عن ضبط شروط امتحان تؤسَّس جامعة مفتوحة تحتاج إلى استقرار اجتماعي ومستوى تربوي آخر؟ ولكن الدكتور كان شديد الإيمان بنجاح الفكرة، وبالأداة. كان يرى إلى واقعنا من بعيد. ومن بعيد تخفي الظواهر تفاصيلها وتقدِّم السطوع.

- ما هو مشروعك الآن؟
- سأعود إلى شيكاغو.
- والجامعة المفتوحة؟
- أُغلقت..

دخل علينا الأميركي الذي يظهر حين ينبغي له أن يختفي، الأميركي السعيد بما يرى، الشاهد على ما لا يتوفر لسواه من نعمة التجربة. حرب وحصار. أهنالك ما هو أكثر إثارة لأميركي يلهث وراء أية مأساة بكاميرا

ودفتـر وزوجة من هـذا الموت؟ سمَّيتـه الـ «كوسمـان» لأنه عـاشق القضايـا الساخنة. ولم أطمئن إلى ما يُبدي من افتتـان بحرب تمـدهُ بثروةٍ إعـلامية. كان علينا أن نموت أكثر ليعمل أكثر، وليتشى بمعايشة الضحايا. جـاء من نيويورك، خصيصـاً، ليتفرَّج علينـا. لم يكن صحافيـاً محترفـاً يركض وراء الخبر لخدمة المهنة. كـان هاويـاً يصور المـآسي بعدسـة كاميـرا تلفزيـونية وعلى أشرطة تسجيل.

ـ ما هو شعورك؟

ـ عكس شعورك

ـ ماذا تقصد؟

ـ هل ستعترفون بإسرائيل؟

ـ لا..

كـان الدكتـور قد استـدعي إلى القيادة ليشـارك في صياغـة عبـارات قانونية غامضة تدور حول هذا السؤال الذي كان يشارك القصف.. عبارات غامضة حول قرارات مجلس الأمن. كانت الضحية مطالبةً بـالاعتراف بحق قاتلها في قتلها. كان المطمورون تحت الأنقـاض مطالبين بـإعلان شـرعية قاتلهم. لم تكن الفرصة مواتيـة لمثل هـذا الاغتصاب السيـاسي، بقدر مـا كـانت السَّاديـة أسرابـاً من الطائـرات. لأول مرة يُـطالَب غيابنـا بـالحضـور الكـامل: الحضـور من أجل تغييب الـذات. من أجل الاعتـذار عن فكـرة الحـرية. من أجـل القول إن غيـابنا حقّ من أجـل تزويـد حقّ الآخـر بحقٍّ تقرير مصيرنا. الآخر الحاضر في كامل أجهزة القتل يطالبنا بالحضـور قليلاً من أجل إعلان حقّه في دفعنا إلى الغياب النهائي..

ـ لماذا نطالب، الآن، بالاعتراف؟

ـ من أجل سلامتكم، ومن أجل سلامة العالم.

ـ الغـريق لا يحرص على جـريان النهـر. المحترق لا يحـرص على بقاء النار مشتعلة، والمشنوق لا يحرص على متانة حبل المشنقة. .

□ □ □

كنتُ أحْمل عنقود عنب وجريدتين، حين انقضَّ عليَّ حـرف «الهاء» الخائف، الخائف أبـداً، في السلم والحرب، الخـائف من أيِّ شيء: من ليلة بلا عاشق، من عام بلا كتاب جديد، من بيت بلا بيـانو، من شهـر بلا نقود، من طريق بلا غزل. انقضَّ عليَّ كمـا تنقضُّ التهمة على لص: متى تخرجون. . متى تخرجون؟ لقد دمرتم بيروت بهذا العبث البطولي.

قلت: تعنين البطولة العبثية؟

قالت: لا فرق. أما زلتم تصدِّقون؟

قلت: نُصدق ماذا؟

قـالت: أي شيء، اخرجـوا. . اخرجـوا كي تعود الميـاه إلى أنابيب البيوت.

هي دائمـاً هكذا: عصبيـة، شقية، ذكيـة، غبية، وجـذابة كعصفـور الدوري. تقدِّس الماء والعطر. وهي الأولى لكُـل عاشق من فـرط رهافتهـا ودعتها المتجددة. عذراء البدايات من عشرين عاماً، وتُربي تموجات بطنها لإغراء أسراب الحمام. تندفع وتتراجع. تلعق بلسانها قدم العاشق، تغسل جواربه وقفاه، تحلق له ذقنه، تقدم له النهار على طبق من كستنـاء، وتقدم له الليل على سـرير من فُـلّ. وسرعـان ما تسخـر من اندفـاعها وأوهـامها: أخطأت. إنه لا يساوي شيئاً. كنا نداعبها، أنا وأهلها، ونُسمي طباع خيبتها

«جورج». هل تذكرين جـورج؟ فتقفز من وجههـا الطفـولي لتعضنا واحـداً واحداً. نحن نواصل الضحك وهي تواصل كسر الأطباق.

أحببتُ مروحة عواطفها وبراءة الشيطان فيها، وخوفهـا من الطائـرات حين تجعلها تقفز كجندب فوق الأثاث وتصرخ: بس بس.

أبوها يبكي على أي إنسان يموت في أي مكـان. أُمها تُصلي لسيـدة لبنان ليحمي بطلها لكل لبنان. وأختها تُعدُّ الطعـام لولـد لا يشبع، وتنتـظر خط الهـاتف للاطمئنـان على الشاب الفـرنسي. وأنا أواصـل الاعتـذار عن وجودنا في بيروت.

- متى تخرجون؟

- حين يوقفون القصف، ويصبح الميناء آمنـاً. اهدئي يـا «هـ» فلسنا نحن الذين نملك هذه الطائرات.

- إلى متى تمضون في شيء لا يوصل إلى شيء؟

- خـذي عنقـود العنب. وابحثي في الجـريـدة عمَّن مـات. إنهم يقصفون حتى بيوت العجزة، ويقصفون الشهداء ليعيدوا إنتاج موتنا.

- هل ستذهبون وتتركون لنا شهداءكم؟

- إذا استـطعت أن تعيدي إليَّ مـا في دمك من دمي، فسنـأخذ معنـا شهداءنا إلى البحر.

- لا أقصد، لا أقصد أن أجرحكم.

- وسنأخذ معنا بخار المرايا، أحلام منتصف الصيف، وأغاني فيـروز عن بيسان.

- لا أقصد، لا أقصد أن أجرحكم.

- وسنأخذ معنا خبز الكلام.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.
ـ وسنأخذ معنا دخان القلوب المحترقة.
ـ لا أقصد أن أجرحكم.
ـ وسنأخذ معنا الصمت الذي يسبق غابات القصائد.
ـ لا أقصد أن. . .
ـ وسنأخذ معنا آثار المطر المتجعد على خطى حاولت أن تسمِّي الوقت.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.
ـ وسنأخذ معنا ما استطعنا أن نراه من هذا البحر. سنأخذه معنا إلى البحر.

ـ لا أقصد أن. . .
ـ وسنأخذ معنا رائحة القهوة وغبار الحبق المفروك وهاجس الحبر.
ـ لا أقصد أن أجرحكم.
ـ وسنأخذ معنا ظلال الطائرات وصوت المدافع في أكياس مثقوبة. .
ـ لا أقصد أن أجرحكم.
ـ وسنأخذ معنا ما خفَّ حمله من الذكريات، وعناوين أُسطورة، ومطالع الصلاة.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.
ـ ولن نأخذ معنا شيئاً. لن نأخذ معنا شيئاً.
ـ لا أقصد أن أجرحكم.
ـ لن نأخذ معنا شيئاً. خذي سريري ومكتبتي وحبوب نومي. خذي

غيابي كله، خذي غيابي عن المقعد الجالس خلف الباب. . خذي الغياب.

□ □ □

هل بكيت؟ لقد نزفت الملح السائل، ملح السردين الذي كان غذائي الوحيد منذ أيام. ولم يعد في مقدور الطائرات أن تُخِيفَني كما لم يعد في مقدور البطولة أن تطربني. لا أُحبُّ أحداً ولا أكرهُ أحداً ولا أُريد أحداً ولا أُحسُّ بشيء أو أحد. لا ماضي لي ولا مستقبل. لا جذور ولا فروع. وحيد كتلك الشجرة المهجورة في العاصفة الكبرى على سهل مفتوح. ولم يعد في وسعي أن أخجل من دمعة أُمي ولا أن أرتعش من تقاطُع حلمين وُلدا في لحظة عند الفجر. . .

□ □ □

لتكن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا العالي لها
شَجَرٌ لا ينحني. يا ليتني. . يا ليتني
أعرف الساعة من أين يطيرُ القلب كي أرمي لها
طائرَ القلب لكي ينقذني من بدني
لم أَمُتْ بَعْدُ، ولا أعرف هل أكبر يوماً واحداً
كي أرى ما لا يُرَى من مُدُني
لتكن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا الغالي لها
حائط يبعدني عن شجني
ولنا البحرُ إذا شاءت، وإن شاءت فلا
بحر في البحر. هنا أسكن فيها رايةً من كفني
وهنا أخرج مما ليس لي

وهنا أدخل في روحي لكي يبدأ مني زمني
ولتكن بيروت ما شاءت. ستنساني لأنساها
أأنسى؟ ليتني.. يا ليتني!
أستطيع الآن أن أُرجع مني وطني
ليتني أعرف ماذا أشتهي
يا ليتني
ليتني!

□ □ □

غرْوب للغروب. تندفع كُتَلُ الغيوم السوداء المعبأة بالبارود نحو حافة البحر. تحمل الطيور تعبها وتحوِّم باحثة عن بقعة لا تطالها أجنحة الطائرات. غروب يدلُّنا على ما فينا من تعب. ينهال علينا الظلام والفحم والقنابل ليشتاق الجسد إلى جسد يضيء شوقاً لا لهفة فيه ولا موت؛ شوقاً معدنياً آلياً لا تخترقه عصافير سرية ولا نغم بعيد، شوقاً مقطوعاً من شجرة الطارىء كما يشتاق الوقت الميت إلى حَبَّة فُستق مالحة، أو إلى أي صوت صادر من راديو..

إلى أين أذهب في هذا الغروب؟ لقد سئمت ذلك الدرج. سئمت تلك الثرثرة هناك. وهناك شرفة الشاعر الذي رأى سقوط كل شيء، فاختار موعد نهايته. أمسك خليل حاوي بندقية الصيد، واصطاد نفسه، لا ليشهد على شيء، بل لكي لا يشهد شيئاً ولا يشهد على شيء. لقد سئم هذا الحضيض، سئم الإطلال على هاوية لا قاع لها. وما الشعر؟ الشعر أن يكتب هذا الصمت الكوني، النهائي، الكُلي. كان وحيداً، بلا فكرة، ولا امرأة، ولا قصيدة، ولا وعد. وماذا بعد وقوع بيروت في الحصار؟ أيُّ

غيابي كله، خذي غيابي عن المقعد الجالس خلف الباب.. خذي الغياب.

□ □ □

هل بكيت؟ لقد نزفت الملح السائل، ملح السردين الذي كان غذائي الوحيد منذ أيام. ولم يعد في مقدور الطائرات أن تُخِيفَني كما لم يعد في مقدور البطولة أن تطربني. لا أُحبُّ أحداً ولا أكرهُ أحداً ولا أُريد أحداً ولا أُحسُّ بشيء أو أحد. لا ماضي لي ولا مستقبل. لا جذور ولا فروع. وحيد كتلك الشجرة المهجورة في العاصفة الكبرى على سهل مفتوح. ولم يعد في وسعي أن أخجل من دمعة أُمي ولا أن أرتعش من تقاطُع حلمين وُلدا في لحظة عند الفجر...

□ □ □

لتكن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا العالي لها
شَجَرٌ لا ينحني. يا ليتني.. يا ليتني
أعرف الساعة من أين يطيرُ القلب كي أرمي لها
طائرَ القلب لكي ينقذني من بدني
لم أَمُتْ بَعْدُ، ولا أعرف هل أكبر يوماً واحداً
كي أرى ما لا يُرَى من مُدُني
لتكن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا الغالي لها
حائط يبعدني عن شجني
ولنا البحرُ إذا شاءت، وإن شاءت فلا
بحر في البحر. هنا أسكن فيها رايةً من كفني
وهنا أخرج مما ليس لي

يصرح بما يعرف وبما لا يعرف. ويده الأخرى تكتب الأوامر والتعليمات والتوصيات. ينظِّم عشرين موعداً في الساعة ولا يتعب. خليَّةٌ نحل في رجل كرَّسته الأقدار للطنين. صديق بلا شروط. مرح، ذكي، معطاء. وفي منزله صَنَم لا يتكلم. صنم يُهتَفُ له. يُسجدُ له. كلما صمت أكثر أثارت حكمة صمته عاصفة من التصفيق. وفي منزله صديق اسمه «أ» قادر على تصوُّر شكل العالم بعد نصف قرن من الزمان. أفكاره المبنية على منطق شكلي سينمائية الإثارة. يتكلم عن الدول الكبرى والصغرى كما يتكلم عن شوارع بيروت؛ بلا كلفة وبلا تردُّد. وإذا صَدَقَتْ آماله فهذا يعني أن هذا الشرق سيُحاصر بعد قليل بين نوعين من كهنة الظلام. أُوافقه على هذا الاحتمال باعتباره حداً أقصى لتطور التدهور، باعتباره أحد أشكال الكارثة القادمة. ونختلف إلى ما لا نهاية حين يرى أن ذلك هو طوق النجاة الوحيد، وأن في وُسع ظلام أن ينتصر على ظلام، ويكون الفجر لنا. وأنا لا أُصدق ولا أُريد أن أُصدق أن تاريخ هذا الشرق سيكرر نفسه بطريقة ميكانيكية أو حتى إبداعية، مهما انفصلت شعارات السياسة الحديثة عن مبادئها، ومهما تخلَّص الخطاب من مضمونه، فلن أتوقع تغيير العرب وتطوير العرب من غير العرب. ولا أرى أن ذلك النموذج المعد لإغراء اليائسين من العصر بالإيمان قد يَعِدُنا بما هو دون العودة إلى الصراع على أسئلة لم تعد أسئلتنا. ما لي وأخطاء عثمان بن عفان؟ إذ ليس هذا التاريخ، وحده، تاريخي..

يصرُّ «أ» و«ب» على أننا لن نخرج، لا لأنهما يفتقران إلى المعلومات وخبايا المفاوضات، بل لأن فكرة الخروج من بيروت تُشبه فكرة الخروج من الجنَّة أو من الوطن. كان يصعب على مَنْ شارك في صياغة

التجربة وشهد نمو بدايتها المرافق لنموِّه الشخصي أن يلقى نفسه خارجها وهو يلامس نهاية بدت له صاعقة. لم يكن أحد قد أعدّ نفسه، ولو في الخيال، لمثل هذه الفرضية. لنفترض أن موازين القوى أخرجتنا من هذا المكان، فماذا أعددنا للرد على الاحتمال؟ ماذا أعددنا لما هو أسوأ؟ ماذا أعددنا من بدائل لهذا التمركز المؤسساتي الكثيف؟ هل أصابنا نوع من القدرية ومحالفة الحظ؟ ألم ننجُ أكثر من مرة، فإلى متى نعتمدُ على النجاة؟ . .

و «م» صامت بعيد عنا، وبعيد عن السحالي. منكفىء. يرى البحر. يرانا في البحر. كأنه خارج، للتّو، من كابوسي. لا يراه أحد وهو يدثر بالصمت ويرد عنا أمواج البحر المتلاطمة في الغرفة. هل ترى ما لا نرى يا «م»؟ يرد: وهل ترى ما لا أرى يا «م». خفت: هل رأيت حلمي. لم تكن أنت في منامي. قال: لم أكن في منامك، ولكن هل ترى ما لا أرى؟

هدأت أصواتهم ليتأكدوا من أننا أُصبنا بالجنون. .

أخذني إلى الشرفة. . هل شقّتُك آمنة؟ سألت: ماذا تعني؟ قال: هل تصلح لنوم القائد. هل جيرانك معنا أم ضدنا؟ قلت: البحر ضدنا. قال: هل تعني أنك تخشى على سفينته؟ قلت: أعني أن واجهة شقتي زجاجية ومفتوحة على قذائف البحر. قال: لا تصلح. ومن الأفضل أن ينام، الليلة أيضاً، في كَرَاج للسيارات أو على الطريق.

هَبَّتْ رياحُ الجنة. لقد استعدَّ لكُلِّ شيء، وأبطل توقيعه. لم يبق على المسرح احتمال لدخول شخصيات جديدة. ووقف وجهاً لوجه أمام القضاء والقدر. هل كانت التراجيديا إغريقية أم شيكسبيرية؟ لقد زُجَّ بكل عناصر الدراما في المشهد الطويل. فهل يُضَحِّي بالطفلة الرهينة بيروت أم

يخـرج إلى ما لا يعـرف؟ هل يمـوت هنا في انفجـار عظيم لتُشهـر الفكـرة نُبـوَّتها، أم يُنقـذ هذا البنـاء على السفن؟ لم يبقَ هنـا شيء يُحـرك مـا هـو خارج البحر والسور. وانفضّ العالم من حول المشهد. وحيد. . وحيد إلى ما لا نهاية. هل كان وحيداً منذ البداية دون أن يدري. هـل جاء متـأخراً أم جاء مبكراً هذا الحاملُ عود الثقـاب في حقول البتـرول؟ وحيد كمقـطع في نشيد لا مطلع له ولا ختام، وحيد كصرخة القلب في برية. .

بعض الجمعيـات الدوليـة يُعِدُّ لنـا الخيام لـمواجهة الشتـاء القـادم، فنحن مـا زلنا ـ في وعيهم ـ لاجئين يستـدرون العطف ويخـافـون الشتـاء. وأميركا تحتاج إلينا قليلاً، تحتاج إلينا لنعترف بشـرعية ذبحنـا، تحتاج إلينـا لننتحر لها، أمامها، من أجلها، والقبائل العربيـة تقدم لنـا الدعـاء الصامت بدلاً من السيوف. وبعض العواصم يمجد بطولاته فينا وينكر دمنا، فلا اسم لمن يقاتل حول المطار! وبعض العواصم يعد لنا خطاب الوداع الجنائزي.

□ □ □

هبَّت رياح الجنة. فهل سيقول الحقيقة. هل سيقول الحقيقة؟

لن يقول. .

سألت «م»: أي بحر سنسلك؟

قال: البحر الأبيض، ثم البحر الأحمر.

قلت: لماذا أنت بعيد؟ هل كنت في منامي أمس؟

قال: لا أعرف. أي منام؟

قلت: كنا هنا. الغرفة ذاتها. الكلام نفسـه. الصنم إيّاه. والغـارات هي الغارات. دخل حارس البناية ليبلغنا أن شخصاً غريباً يدَّعي أنه صديق قديم قد جاء لزيـارتكم. فوضـع كل رجـل يده على مُسَـدَّسه لاستقبـال ما

يسفر عنه الباب من غموض. وخبّأنا الصنم في الحمّـام. ولكن الزائـر كان عز الدين قلق بتوتره الضـاحك. سـألناه: كيف وصلت؟ قـال: كما وصلتم وصلت. لم يتغير فيه شيء. بعيد وأليف. ولكنه كان ينظر إليـك بريبـة مَنْ يقـابـل غـريبـاً لا يعـرفـه. قلنـا لـه: اطمئن يـا عـز، فـإن «م» في غـرفـة العمليات. .

كنا نتكلّم معه بلا دهش، كأنه مسافـر عاديّ قـادم من باريس، كـان يواصل حضوره بيننا ويشـاركنا عمليـة الانسلاخ الجمـاعي الكبير عن هـذا المكان. نسينا أنه غادرنا إلى الأبد منذ عشر سنين، وأن الموتى لا يزورون الأحياء إلا لإثارة التأويل. ولكن عز الدين بيننا بلا جلبةِ ولا فزع.

سألته عن أحواله هنـاك في الآخرة. قـال إنها عـادية لا جـديد تحت الشمس. قلت: هـل هناك شمس؟ قـال: نعم، هناك شمس. سـألتـه عن المناخ فقال إنه حار ورطب لأن المناخ في آب حار ورطب. سـألته عمَّ إذا كانوا هناك يعرفون أخبارنا وما يحدث في هذا الحصار؟ فقال إنهم يتـابعون الأخبار، ساعة، ساعة على شاشة التلفزيون. ويتألمـون من الغيظ لعجزهم عن تقـديم أي عون لنـا. سألتـه عمّن وصـل إليهم منـا لعلّهم قـدمـوا لهم شهادة حيّة عما يجري. قال: لم يصل إلينا أحد. قلت: وقـد نسفوا مقبـرة الشهـداء، فهل نجـا أحد من الشهـداء وجاء إليكم؟ قـال: لم نقابـل أحداً منهم، وسألته: أين تقيم؟ في الجنة أم في النار؟ قال مستغرباً: ماذا تعني؟ قلت: من أين جئت، من الجنـة أم من جهنم؟ قال: جئت من هنـاك. . . من الآخرة. حدّقت فيه مليّاً لأتأكد من آثـار عنوانـه على جسده، فـوجدتـه طبيعياً وعادياً، كما غادرنا، لا آثار للجحيم ولا علامـات للنعيم. أهذا كـل شيء يـا عز الـدين. . أهذا كـلُّ شيء؟ . . هل تـزوجت؟ قال: لم أجـدها

بعـد. مَنْ لا حظ له في الـدنيـا لا نصيب لـه في الآخـرة. سـألت: وكيف تقضي وقتـك هناك؟ قـال: كالمعتـاد.. من المكتب إلى غرفتي في الحيّ الجامعي، ومن قاعات المحاضرات إلى بيوت الطلبة. وأتذكرك حين أُسافر في القطار من باريس واقفاً. وحين أطلّ على منزل بيكاسو وعنزته الشهيرة، وحين أدخل المطعم ذا الجدران الممتلئة بجميـع أشكال الخبـز، وأتذكـر الطلبة التونسيين الذين صاحوا بنـا في عيد الثـورة: سحقاً سحقـاً بالأقـدام لدعاة الاستسلام، فرددنا عليهم: سحقاً سحقاً بالأقدام لدعـاة الاستسلام، التفتنا إلى «ب» فلم نجده.. كان مشغولاً بحماية الصنم من القصف..

قلت لعـز الدين: أمـا زلنا، قبـل التكـوُّن، في حـاجـة إلى الأوهـام لنتكوَّن؟

قال: يبدو ذلك.

قلت: وما زلنا في مرحلة التكون في حاجة إلى أصنـام يعبدهـا بحثُنا عن المثال؟

قال: يبدو ذلك..

قلت: وما زلنا، في مرحلة سباق الدم مع الفكرة، وسباق الفكـرة مع الإطار، في حاجة إلى حبر فاسد، وإلى أدب مبتذل لنقول إننا مؤهلون؟

قال: يبدو ذلك..

قلت: إذا كـان الجواب عن ذلـك هو يبـدو ذلك، فلمـاذا نخرج من بيروت إلى الفضيحة.. ودواليك؟

قال: لا أعرف.

قلت: كيف تفكرون هناك؟

قال: مثلكم. كما تفكرون هنا.

قلت: يا عز الدين، ماذا تفعل هنا. ألم تُقتل؟ ألم أكتب فيك رثاء. ألم نمش في جنازتك في دمشق. هل أنت حيّ أم ميت؟

قال: مثلكم!

قلت: يا عز الدين، لنفترض أنني قلت لك إننا أحياء، فهل أنت ميت؟

قال: مثلكم.

قلت: يا عز الدين، لنفترض أنني قلت لك إننا موتى، فهل أنت حيّ؟

قال: مثلكم.

صحت: يا عز الدين، ماذا تريد مني؟

قال: لا شيء.

قلت: إذن، دعني وشأني.

قال: آن لي أن أذهب؟

قلت: إلى أين؟

قال: من حيث جئت.

قلت: إبق معنا قليلاً.. سنخرج معاً.

قال انتهت إجازتي، وعليَّ أن أعود.

قلت: من أين جئت؟

قال: لا أعرف...

صافحنا واحداً واحداً. ولكنه خصّك يا «م» بنظرة خاصة سحبتك منا قليلاً. عانقناه على الباب.. حيث تلاشى كخاطرة شاردة. نظرت إلى الدرج فلم أجده. نظرت إلى الشارع فلم أجده. اختلط بأمطار القذائف.

لم أجده في أي مكان. نظرت إلى شظايا الصواريخ فلم أجد أحداً. لم أجد أحداً. . عز الدين اختفى.

قلت لهم: هل كان مضطراً للعودة؟

قالوا: من هو الذي كان مضطراً للعودة؟

قلت: عز الدين.

قالوا باستهجان: من هو عز الدين؟

صرخت: الرجل الذي كان معنا. هنا. الآن. وما زالت خطواته تدقُّ الدرج!

نظروا إليّ كما ينظرون إلى ممسوس. أشرت إلى مقعده المسكون بطيفه: هنا. هنا. . كنتم تتحدثون إليه. كنتم تعانقونه.

لم يصدقوني. قدموا لي كأساً من الماء وفنجان قهوة. .

هل يحلم المرء وهو جالس مع الآخرين؟

هل يحلم المرء وهو يحاور؟

□ □ □

. . البحر يقترب منا. الخريف يقترب من البحر. آب يُسلمنا إلى الخريف. فإلى أين يأخذنا البحر؟

القصة إياها، لا أكتبها ولا أنساها. غصَّة الكتابة وحرمانها الأبديّ، قصة الرجل الذي جلس سبعاً وعشرين عاماً فوق صخرة على شاطىء صور. أما آن لها أن تعتقني؟ أم آن لها أن تأخذني معها إلى البحر. ولكن من يفكر بالكتابة في هذا اليوم؟ سأنسخها مرة أخرى لأتدرب على الكتابة، سأنسخها لأجد طريقي في البحر. تعبتُ من كثرة ما سألت هاني: كيف

نُسمِّي الرجل الذي نسينا اسمه؟ ومتى تأخذني إلى الصخرة التي هبط منها كمال إلى البحر؟

تساءل هاني: من هو كمال؟

قلت: هو الرجل الذي أسألك عن اسمه منذ ثلاث سنوات، الرجل الذي كان جالساً فوق صخرة على شاطىء صور، في إنتظار حمامة تظهر من الجنوب الغربي حين تكون الرؤية واضحة وحين يكون البحر عاقلاً. ولم يكن يعرف شيئاً، لا شيء، غير تلك الحمامة التي لا يعرفها أحد. كانت سرَّهُ الباقي. وحين كان أصدقاؤه في المخيم يجتازون الحدود ويعودون أو يموتون، لم يكن يكترث بأخبارهم أو بطولاتهم. كان يجلس على الصخرة في انتظار الوقت المناسب الذي سيأخذه على البحر إلى الحمامة. ولم يكن بإمكان الطائرات المغيرة أو جنازات الشهداء أن تسلخه عن الصخرة. كان الضباب والغروب، وحدهما، يعيدان كمال إلى العائلة.

سألت هاني: هل تعيش حمامة سبعاً وعشرين سنة؟

قال: إن كمال يعتقد أنها تعيش من الأزل إلى الأبد.

سألت: ولماذا لا يصطادها؟

قال: لأنها لا تطير، ولأنه لا يستطيع الوصول إلى بُرجها.

وأخيراً وضع يديه على الطاولة وفتحهما ليسكب السرَّ دُفعةً واحدة: لماذا أتعبك وأتعب صدري؟ فالمسألة لا تحتاج إلى كُلِّ هذه الأسئلة.

الحمامةُ هي حيفا..

..لأن جبل الكرمل المنبثق عن صعود البحر إلى السماء وعن هبوط السماء إلى البحر، يرسم معجزة: أعني عنقاً مُطوَّقاً بقبلة مجبولة من حجر

وشجر، أعني حيفا، تتقدَّمُها شهوة حادة في شكـل منقار مُلَوَّن يشهـد على أن في مقـدور موجـة جامحـة أن تتحجَّـر من الأَزل إلى الأَبـد. لأَن الأمـر كذلك فإن حيفا تشبه الحمامة. وكل حمامة تشبه حيفا.

ولكن ما لم يدركه كمال هو أن المدينة تطير. . تطير في دمه.

وكمال ينطوي على سرِّه. يلتف بذكـرياتٍ صـارت أحلامـاً. يتعبَّد. يزيح عن نفسه زمناً لا يستهويه فلا يعترف به. كُلُّ ما يجري في هذا الزمن هو هَمٌّ الآخرين أو صغائرهم. اندلعت حروب أربع دون أن تعنيه أو تكـون حروبه، طالما لم تأخذه شظيةٌ واحدة من شظاياها إلى. . الحمامة.

أعطني مزيداً من التفاصيل عن كمال يا هاني. هل عرفتـه شخصياً. هل رأيتَهُ في صور؟

يتردد هاني في الإجابة، فأعرف أنه لا يعرف. ولكنه يقول:

لا يعـرف البحر من يـراقب البحر. لا يعـرف البحر من يجلس على الشاطىء. ولا يعرف البحر من يأتي إليه ليرى مشهداً. لا يعرف البحـر إلاّ من يغوص. يجازف. وينسى البحر في البحر. يتلاشى في المجهول كمـا يتلاشى في امرأة الحب. لا فاصل بين الزرقة والماء. هناك الكلمـات. لا يُرى ولا يُلمس إلا في أعماق البحر. البحر هو البحر.

ـ لا أحب شعـرك يـا هـاني، حـدثني عن كمـال، لا تحـدثني عن نفسك!

لا يستطيع. منـذ ثلاث سنين وهـو يروي قصتـه مع بحـر صور. ولا شيء عن كمال، لا شيء عدا العنوان.

ـ قل لي ما هي سيرة كمال؟

ـ قلت لك إنه يُسَمِّي حيفا حمامة. وهو أيضاً صيَّاد سمك. يصطاد في الليل. وفي النهار يتطلَّع إلى الحمامة.

لا يستطيع أحدٌ ملاحقة موجة غرقت في البحر. حين يخرجُ العاشق السيىء الحظ من تجربة الحب الأول ومن محاولة الانتحار الأولى، يصعب عليه وعلى قاضي المحكمة التوصّل إلى إثبات البراءة أو نفيها فيدخل في السجن الأول ويخرج إلى طريق آخر. لأن العاشق السيىء الحظ يُؤثر العقوبة على الاعتراف المثير للسخرية. ماذا لو قلت: حين قطعت الشارع هناك لم أحمل قنبلة ولم أنتبه إلى لافتة «منطقة مغلقة».. كنتُ أحمل أشواك القلب لأرميها في البحر، لأن حبيبتي كانت تُزَفُّ في تلك الليلة. وماذا لو قلت أيضاً: سيدي القاضي، كنت أريد الانتحار في المجهول المائي الذي لا ينذر بالوجع. ولكن القمر أطلّ قوياً فرأيت الحجارة المدبّبة تحت سطح الماء الصافي، فخفتُ الموت وعدت، لأنه سيكون موتاً مؤلماً، موتاً صخرياً واضحاً جارحاً. فتباً للذين عَيَّنوا موعد الزفاف في ليلة مقمرة!

ولكن، لو قلتُ ما كان ينبغي عليَّ أن أقول لأنجو من السجن، فهل كان القاضي سيقبل المسألة على هذا النحو. هل يصدق؟ هل يُصدّق أني اجتزتُ هذا الطريق لأنتحر من أجل فتاة لا من أجل بلاد!

وهكذا دَلَّني القاضي على أن للبحر طريقاً آخر. أو أنَّ في البحر سرّاً آخر. ومن يومها وأنا أذهب إلى البحر ولا أراه.

ـ هل تعرف لماذا لا تراه؟ لأنك تذهب إلى الشاطىء.

ـ ولكنني أرى البحر.

ـ لا أحد يعرف البحر كالآخر.
ـ وماذا حدث لكمال. أما زال يرنو إلى الحمامة؟
ـ عاد إلى البحر. . عاد ليلقى الحمامة.

كان كمال قليل الكلام، أو شبه أخرس، ربما كان يعتقد أن الكلام يفسد عليه الرؤية، ويزعج الحمامة، ومع ذلك قال مرة:

في هذا المخيم
تُولد وردة
إذا عاشت طويلاً
ضاعت الحمامة.

ـ ماذا كان يعني؟
ـ لا أعرف. كان غامضاً. كأنه ليس منّا. كأنه لا يشاركنا العودة. .

في الخريف لا يكون البحر بحرياً. يكون سجادة في ماء. ويكون الضوءُ قصباً. .

وفي الخريف تسكت أجراس البحر. وتقرع أجراس الدم. .
وفي الخريف تذبل الحمامة. .
وفي الخريف يتحول القلب إلى تُفَّاحة ناضجة. .
وفي الخريف تنكسر الذاكرة فيسيل الخمرُ من النسيان. .
وفي الخريف ينطقُ الأخرس:
يا ليتني أرمي خُطَايَ
على طريق مِنْ زَبَدْ!
يا ليتني أرمي خُطاي لكي أنام
على سرير من زَبَدْ

حيفا! لماذا لم تطيري كالحمام
حيفا! لماذا لا أطيرُ ولا أنام؟
حيفا! لماذا لا تقولين الحقيقة:
أنتِ طيرٌ أم بَلَدْ
يا ليتني أرمي خُطاي.
وأستريح إلى الأَبدْ..

.. وسرق كمال زورقاً..

ظلّ يجدف في اتجاه الحمامة. ولما اقترب منها كانت الظهيرة ساطعة. وكان ريش الحمامة المطرّز من الحور والغيم واضحاً. وكان حرس الشواطىء واضحين. فأدار المجداف عائداً إلى عرض البحر وتظاهر بصيد السمك. ريثما يهبط الغروب ويقفز إلى طوق الحمامة النائمة على بعد دقيقتين من الموج.

رأى موجته الضائعة فتعرف عليها: حين صحا، قبل سبعة وعشرين عاماً، على صوت الرصاص القادم منْ منطقة البلدية فتح النافذة فرأى الناس تندفع إلى الميناء، فهبط من شارع عباس وأبحر مع المبحرين إلى ميناء عكا التي لم تكن محتلة. وعلى هذه الموجة وصل إلى صور.

.. يبدو أن كمال قد فرح للطريقة التي استولى بها على مصيره الكامل. فقد التقط اللحظة الفاصلة بين زمنين لا يلتقيان. وسيطر على الموجة التي شردته لتعيده الآن. كأنَّ حالماً قد استطاع أن يصحو في اللحظة المناسبة، وأن يُسجِّل حلمه كاملاً على ورقة. هل حدث من قبل أن عاد بحارٌ على الموجة التي شرّدته وضاعت؟ هل حدث من قبل أن قتل

قتيل قاتله بضربة الخنجر ذاتها؟ هل حدث من قبل أن عاد أحد على طريق الرحيل؟ لم يتمكن من إخفاء سخريته من الطريق التي مشى عليها الآخرون كي يصلوا. لم يكن يحج. كان ينزل أقسى العقوبات بزمان كسره. سيجدف في هدوء. سيرسو عند أول صخرة. سيُمْسك بالزورق بكلتا يديه ليغرقه في رمل البحر بكُلِّ ما فيه من حمامات رآها في سماء أخرى. سيبوس هذه اليابسة ويغرف منها رائحة صبا تكسّر وتبعثر. سيتحسّسُ مفتاح أمه الذي استرده من قبرها. سيمشي في شارع الملوك المحاذي للشاطىء ويتذكر عهده الأول في بيع السمك. سيصعد الدرج الحجريّ العتيق الذي يبدأ من درج الموارنة وينتهي عند شارع الخوري. سيلتفت إلى شبابيك تعلَّم أمامها داء التدخين والصفير الأول، ثم ينعطف يساراً إلى الساحة المليئة بالقطط، ثم يهبط خمس درجات ضيقة وزقاقاً أضيق لينفتح أمامه وادي النسناس بشرفاته المتدلية على كنيسة الروم. سيتحاشى النظر إلى الزاوية الشرقية المطلة على درج عريض يؤدي إلى حيّ اليهود. سيشتري رغيف خبز طازجاً من الفرن الواقع على رأس الوادي. سيصعد درجاً طويلاً على اليمين. سيحيي السكّان الجالسين على شرفات تجلس على الأرض عند مدخل شارع حدّاد. ويصل إلى تقاطع الدرج مع ثلاثة شوارع صاعدة يأخذه أحدها إلى شارع عبّاس. سيصعد ويصعد ويصعد ولن يلهث. سيقف طويلاً أمام القنطرة ليملأ رئتيه برائحة السنديان والطيُّون. ثم يمشي سبع خطوات فيطلع عليه البحر والميناء. يجلس على المقعد الخشبي العتيق ويداعب صور التي يراها من بعيد لأول مرة فيحبُّها لأول مرة أيضاً. سيضع المفتاح في مزلاج الباب فلا ينفتح من شدّة الصدأ. سيدق على باب الجيران. ويُسلِّم عليهم ويشاركهم فرحتهم بعودته سالماً ويعتذر عن الرحيل. سيفتح باب بيته ويسرع إلى

حنفيّة الماء ليسقي النباتات التي عطشت. سيتمدد على بلاط البيت وينام ساعات.. ساعات.. ساعات. سينام إلى الأبد.

صحا كمال من غفوته القصيرة. الفرح يملأ البحر. ومن فرط إحساسه بالحرية شعر أنه حبَّةُ قمح، وأن البحر تربة خصبة. وأن الموج سنابل.

نظر إلى ساحل يمتدُّ في يده الممدودة، فرأى قطعة ماسٍ تخرط الجبل لتنحت له مهداً سريعاً. سينام أعلى من البحر قليلاً. أعلى من النوم. سيشتهيه البحر. سيحوله إلى عصفور من الحجر. سينام بعد قليل..

وحين هبط الغروب، جدَّف كمال بحماسة لم يعرفها من قبل. وحين اقترب من الشاطىء سلّطت عليه الحمامةُ أضواءها الكاشفة. لقد احتاج الأمر إلى وقت ليعرف كمال أنه مُحاصر بزوارق حربية، وأن البنادق مُصَوَّبة عليه من جهات البحر كُلِّها، وأن الحمامة ليست هي التي تبهر عينيه..

تجعَّدت الموجة.
تجعَّد القلب..
- هل معك أسلحة للقتل؟
- معي حنين يقتلني
- من أين أنت؟
- من الحمامة.
- إلى أين تمضي؟

ـ إلى الحمامة.

ـ ما هي هذه الحمامة؟

ـ حيفا.

ـ من أرسلك؟

ـ خيط الدم.

ـ كم عمرك؟

ـ موجة تأتي وتضيع.

ـ أين كنت تقيم؟

ـ في صور.

ـ ماذا كنت تعمل هناك؟

ـ أصنع آلهة.

ـ ما أسماء آلهتك؟

ـ الحمامة.

ـ هل أنت فدائي؟

ـ لا.

ـ وماذا تريد؟

ـ أريد أن أدفن جُثّتي بيديّ تحت طوق الحمامة.

لم يُصدِّق رجال الشرطة البحرية ولم يفهموه. ظَنُّوه يناور. صعدوا إلى زورقه بحذر شديد. قيدوه. نزعوا ثيابه. ولم يجدوا شيئاً، لا سلاحاً ولا هوية. سألوه إن كان صياداً ضلَّ الطريق في البحر. قال: لا، أنا لا أضل الطريق. أنا أعرف الحمامة جيداً، وجئتُ لأرى الحمامة..

لم يفهموه. هم أيضاً من حيفا ولكنهم لا يعرفون أن حيفا حمامة.

ـ هل كل ما في الأمر أنك تريد أن ترى الحمامة.

ـ نعم.

ـ إذن، سترى الحمامة!

دَقُّوا يديه وقدميه وكتفيه بالمسامير على خشب الزورق، وقالوا: إبق هنا. وانظر إلى الحمامة. الحمامة أمامك..

كان ينزف، وكانت الحمامة تكبر وتصغر..

وبعد أسبوع، أعاد البحر جثته إلى شاطىء صور، إلى الصخرة التي كان ينظر منها إلى الحمامة..

أهذا هو البحر؟

هذا هو البحر..

□ □ □

دخلتُ في ليل المدينة الكحليّ مثقلاً بالتعب و«كوابيس اليقظة». دارت بي حياتي دورات حادَّة. لا أستطيع أن أواصل هذا التقاطع في الزمن، ولا أستطيع أن أتوغَّل في ما هو أكثر من أوَّل الليل. من أوصلني إلى الزقاق الفاصل بين «ماي فلور» و«نابليون»؟ لن أدخل إلى هذا المكان، فقد حفظتُ ما سأسمع. كانت قنابل الطائرات المضيئة تفتح ظلام الزقاق واسعاً لخطىً أجُرُّها جراً. هنا لم أمُتْ. هنا لم أمت بعد. من عشر سنين وأنا أسحبُ ظلّي على هذا الرصيف، وأوقع غربتي، وأعرف أنني لن أبقى أكثر من عام. تكدّس العام على العام. منذ عشر سنين وأنا أقرع هذه البوابة وأتلافى البحر. كنتُ أوثر الطريق البريّ، الطريق الأول الذي مشيته منذ ثلاثين سنة، وسلكتُهُ ثانية إلى هناك. هل نسيتُ أن أرجع، أم نسيتُ أن أتذكر؟ كيف كان كُلُّ شيء، أيّ شيء، منذ عشر

سنين؟ تمشي أيامي أمامي كقطيعٍ من ماعز لا يـأتلف. تمشي أيامي ورائي كرائحة الوردة الواقفة عكس الريح. وتمشي أيامي حولي كما أمشي حـولها الآن في لعبة الكراسي الموسيقية الصادرة عن آلات معدنية. هنا لم أمت. هنا لم أمت حتى الآن. ولكن هذا الصـراخ الهابط من السمـاء، والصاعـد من الأرض، لا ينقطع ولا يُتيح لأيـة صورة من صـور أيامي أن تـرسو على شكلها، ولا يأذن لخوفي بأن يتكامل ولا يسمح لطيشي بأن يتغافـل. كفى! حركت يدي في ظلام الزقاق المضيء لأطرد عن رؤياي سحابـة الطائـرات كما يطرد المرءُ الذبـاب. كفى! قُلتها بصـوت أعلى، فردّت بصـوت أعلى وأعلى.. وبصقتْ كتـلاً من لهيب أعـادتني من رحلة القـطار المسـافـر من حيفا إلى يافا لأعرف أني أسير على طريق آخـر. كفى! فهمتُ.. وماذا لـو كنتُ هنـا. هنـا لم أمت... لم أمت بعــد... كفى.. سنخـرج، قلنــا سنخرج، فلماذا تواصلون هذا الهراء الجهنمي. كفى.. ليتنا لا نخـرج ما داموا يواصلون هذا الهراء الجهنمي. كفى، يا أولاد الكلبة، أيها المفتونون بعضلات الحديد، وأشعة الليزر، والقنابل العنقودية، والقنابل الفراغيـة.. كفى! استعـراض قوة متـرف. قضم المدينـة والأعصاب. والـظلامُ سريـع الانتشار في مدينة لا كهرباء فيها. قطعة فحم واحدة تنجب هذا الظلام كُلَّه في أقلّ من نصف ساعـة. ولأول الليل مـذاق مُرّ، حـامض، رخو. مـذاق يخلق في النفس بـلاداً غريبـة الغربـة، ويخلق في عطش الجسـد الـرطب شوقاً خاملاً إلى عطش جسد رطب آخر. ويسوق النسيان إلى مجرى آخر: كلانا يقتل الآخر خلف النافذة. قـطار الساحـل يُسابق البحـر على اليمين، ويسابق الشجر على اليسار. مطر، مطر وشجر، مطر وشجر وحـديد. مـطر وشجر وحديد وحرية. وصديقي الشقي يـداعب صديقي النـاحل المكفهـر بلا نهاية. لأول مرة، يأذنون لنا بأن نغادر حيفا، شريطة أن نعود في الليل،

لنذهب إلى محطة الشرطة الواقعة على طرف الحديقة، حديقة البلدية، ليقول كل واحد على طريقته: سجل ـ أنا موجود. سجِّل! إيقاع قديم أعرفه. سجل ـ أنا، أعرف هذا الصوت البالغ من العمر خمساً وعشرين سنة. يا للزمن الحي، يا للزمن الميت، يا للزمن الحي الخارج من الزمن الميت. سجل: أنا عربي، قلت ذلك لموظف قد يقود ابنُهُ إحدى هذه الطائرات. قلتُها باللغة العبرية لأستثيره. وحين قلتُها باللغة العربية مسَّ الجمهور العربي في الناصرة تيارٌ كهربائي سري أفلت المكبوت من قمقمه. لم أفهم سرّ هذا الاكتشاف، كأنني نزعت الصاعق عن ساحة ملغومة ببارود الهوية، حتى صارت هذه الصرخة هي هويتي الشعرية التي لا تكتفي بأن تشير إليَّ، بل تطاردني.

لم أدرك أنني كنت في حاجة لأن أقولها هنا في بيروت: سجل، أنا عربي. هل يقول العربي للعرب أنه عربي؟ يا للزمن الميت، يا للزمن الحي! نظرتُ إلى ساعة يدي لأعرف ما هو عمري الآن. خجلتُ من هذه النظرة: هل ينظر المرء إلى ساعة يده ليرى عمره. منذ أسابيع، نصب لي الصديق «أ» كمين الأربعين. صرخ معين في الحفلة مقهقهاً: لم تعد فتى، الحمد الله، تخلّصنا من فتىً آخر. لم تعد فتى. لقد صرت في الأربعين! قلت له: وماذا يبهجك يا عجوز؟ قال: يبهجني أنك في الأربعين. قلت: أنسيت أنك تقترب من الستين؟ قال: ليس هذا مهماً. الأعمار كلها تتشابه بعد عتبة الأربعين، لقد أدركتني الآن. منذ عشرين سنة وأنا أنتظرك هنا على عتبة الأربعين، وها أنت وصلت. أهلاً وسهلاً. لم تعد فتى، لم تعد فتى، لقد سكر معين حدَّ الهذيان، حدَّ الظن بأني أكبر وهو يتوقف عن الكبر. فتنتهُ المساواة. قلنا: عاشت المساواة. واحتفلنا به.. يا للزمن!

القطار يقصُّ البحر والشجر. الشجر والبحر يهربان من القطار. قطار الزمن على حديد العمر. هل كنا حقاً في العشرين عندما أخذتني هويتي إلى ذاك النشيد المصكوك بحوافر خيل يلتهمها الأفق المفتوح على أفق مفتوح على أفق لا نعرف إن كان مفتوحاً أم مغلقاً؟ وهل كنتُ حقاً في السابعة والعشرين حين احتكّ نشيد الهوية بنشيد الأناشيد وشبّ حريقٌ في السوسن، وسمعتُ آخر صرخات الحصان الهاوي من جبل الكرمل إلى البحر الأبيض المتوسط؟ إلى متى يتذكر الوجع أفعاه الساحرة.. وإلى متى نواصل الذهاب نحو الأربعين؟ مصادفة... ليس أكثر من مصادفة أن يكون الخروج من الجسد خروجاً من البلد. ولم أتذكر هذه المصادفة إلاّ الآن. قطار ومطر وشجر ومدفأة، وقدمان حافيتان بيضاوان على جلود عشرين خروفاً مروا في نشيد الأناشيد. والمغني يغني لسوزان التي أخذته إلى النهر. وهي تقول لي: خذني إلى أستراليا، وأنا أقول لها: خذيني إلى القدس. لا، لم أتذكر شيئاً ولكنني كنت أحلم، فهل الحلم هو اختيار النسيان. ومن المنام يخرج منام آخر: هل أنت حيّ. يا للزمن الحي، يا للزمن الميت. لقد اكتملت الدائرة. أمي البعيدة تفتح باب غرفتي وتقدّم لي القهوة على طبق من قلبها. أداعبها: لماذا أذنت لي أن أضع ركبتي على السكين وأضغط لتبقى معي هذه الندبة؟ ولماذا أذنت لي أن أمتطي الحصان ما دام سرجه سيسقط ليسقطني تحته ولتبقى على جبيني هذه الندبة؟ الظلامُ الكحلي يتفتح، ينفرج، يصير أبيض. الظلام أبيض حالك البياض. وجدتُ نفسي جالساً على مقعد جلديّ مريح، أستمع إلى ثلاثي القتل المتناغم: الطيران، البحرية، والمدفعية. أشعلت قنديل الغاز لأعد طقوس النهاية. ما زالت الساعة العاشرة مساء. حملت قنديل الغاز ذا الشخير الأليف ومشيتُ إلى غرفة المكتبة لأكتب وصيتي. لم أجد ما

أوصي به. لا سرٌّ في حياتي. لا مخطوطة سرية، ولا رسائل خاصة احتفظ بها. وناشري معروف. وحياتي فضيحةُ شعري، وشعري فضيحة حياتي. رفَّ على بالي مطلع قادم من سطوح بيوت الجيران: يطيرُ الحمامُ. يحطُّ الحمامُ. يطير الحمامُ. أعجبني أن أموت في الأربعين، لا قبل، ولا بعد..

سمعتُ نقرتين على الباب. هي، هي المشدودة كنداء أخير. هي المهووسة بإطفاء الملح المشتعل في دمها. ناديتُها باسم آخر. قالت: من هذه؟ قلت: لا أحد.

حملتْ مصباح الغاز، وراحت تبحث عن الاسم الآخر في كل مكان وعلى الشرفة. لم تجد أحداً.

ـ هل تهذي، أم تحلم؟

ـ شيء من هذا، شيء من ذاك.

ـ من هي؟

ـ لا أحد..

ـ هل تهذي؟

ـ أحياناً..

إقتربت مني، وأشعلت نار بطنها الناعمة.. ناراً زرقاء بيضاء، فحيح. هسهسة ملح. أنين قطط مكبوتة. ورغبة في موت مختلف.

ـ أفي كُلِّ يوم؟ قلت.

ـ في كل يوم إلى أن ينتهي الحصار. أعود إلى بيتي. وتخرج من هنا. كن تابوتي لأكون تابوتك.

ـ على الشرفة. أريد أن أرفع تابوتي على الشرفة، على مرأى من طائراتهم وبوارجهم ومدافعهم، على مرأى من أضواء الأشرفية.

ـ مجنون؟

ـ مجنون في الحياة.

ـ لا.

ـ على الشرفة سترفعين تابوتك. الشرفة هي اعتداءُ الحياة على الموت. هي مقاومة الخوف من الحرب. لا أريد أن أخاف. لا أريد أن أخجل.

ـ ولكن، كيف أصرخ على الشرفة؟

ـ أمن الضروري أن تصرخي دائماً؟

ـ الرجل لا يفهم المرأة.

ـ المرأة لا تفهم الرجل. .

. . وهنا، لم أمت. هنا لم أمت. منذ عشر سنين وأنا أعيش هنا. لم أعش في أي مكان عشر سنين. لم أتآلف مع رائحة الخضراوات ونداء الباعة، وضجيج البار المُسلَّح ومشاكل الماء والمصعد كما تآلفتُ هنا. هنا لم أمت. شرفات كثيرة تطل على شرفات كثيرة مفتوحة في الربيع والصيف والخريف وبدايات الشتاء ونهايات الشتاء لتتبادل الأسرار والفضائح الصغيرة وأجهزة التلفزيون العالية الصوت، وروائح الثوم والشواء، وأصوات اهتزاز الأسرة في ساعات بعد الظهر وفي الليل. شارع صغير، صغير اسمه شارع «يموت». وهنا لم أمُت. وهنا، منذ قليل، في موسم السيارات المفخخة، كنت أمشي مع أحد الجيران في أول المساء، حين استمعنا إلى خشخشة في سيارة، فنبَّهنا سكان الشارع إلى ضرورة مغادرة بيوتهم ريثما يصل

الخبير العسكري، فإن انفجار سيارة واحدة يقضي على سكان الحيّ الذين جاءوا، بحثاً عن الأمان حول الجامعة الأميركية، من كل أنحاء المجازر والطوائف. وحين جاء الخبير العسكري وعاين السيارة لم يعثر على مائة كيلوغرام من الديناميت، كما توقعنا، بل عثر على جرذ جائع يقضم أمعاء السيارة. ضحك الحيُّ كُلُّه حين عرف أن في وُسع جرذ واحد أن يُهجّر حيّاً. نعم، في وسع جرذ واحد أن يُهجّر مدينة، وأن يحكم دولة!

وهنا، لم أمت. لم أمت بعد. كُلَّما كانت تحطُّ الطائرة في مطار بيروت كنتُ أشمّ روائح المجهول، وعبق الرحيل القادم. كان الضباب الصاعد من رطوبة الصيف، وجفاف الربيع القاسي، اللاذع، السريع يوقظ فيَّ حاسة المؤقت: هل سنبقى هنا؟ لن نبقى هنا. يبدو أن لنهايات الأشياء شكلاً مُحدَّداً، شكلاً من الغموض المحدد، شكلاً من أشكال تواطؤ الطبيعة مع الهاجس، أي هاجس. وخاصة في آب. آب الشهر الدنيء، السافل، العدواني، الحاقد، الخائن. . آب القادر على تزويد الرمز بما يحتاج إليه من جثث، وعلى مَدِّ تراخي الجسد بما تبول عليه الطبيعة من عبوس البخار ونذير الرطوبة المحتقن. وجهُ آب وجه حاقن لا يجد مرحاضاً ولا حائطاً مجهولاً. آب شهر قذر، ضجر، قاحل، قاتل، مائل إلى نهايات تطول مقدماتها، نهايات لا تبدأ ولا تنتهي، كأنَّ آب طائفية الفصول التي لم تجد أتباعها بعد. آب قادر على استفزاز البحر، البحر الذي يحيل إلى الأفق زفير الرصاص.

ـ قل لي، يا أخ محمود، ماذا تقصد بالبحر، ما معنى البحر، البحر طلقتك الأخيرة؟

ـ من أين أنت يا أخ؟

ـ من حيفا.
ـ من حيفا، ولا تعرف البحر؟
ـ لم أولد هناك، وُلدت هنا في المخيم.
ـ وُلدت هنا في المخيم، ولا تعرف البحر؟
ـ نعم. أعرف البحر. ولكنني أعني: ما معنى البحر في القصائد؟
ـ معنى البحر في القصائد هو معناه على حافة البرّ.
ـ هل البحر في الشعر، هو البحرُ في البحر؟
ـ نعم، البحر هو البحر، في الشعر وفي النثر، وعلى حافة البرّ.
ـ ولكنهم قالوا لي: إنك شاعر رمزيّ، مغرق في الرمزية، لذلك ظننتُ أن بحرك غيرُ البحر الذي نعرف، غير بحرنا...
ـ لا، يا أخ، خدعوك. بحري هو بحرك، هو بحري. نحن من بحر واحد، وإلى بحر واحد... البحر هو البحر..

يتعجب المقاتل من عجز الشاعر عن تفسير شعره. أو يتعجّب من سهولة الشعر ما دام البحر هو البحر. أو يتعجّب من حقِّ الواقع البسيط في الكلام:

ـ ألستَ أنت، يا أخ، مَنْ يُدخل البحر إلى الشعر، حين تحمل البحر على كتفيك وَتُثَبِّتُهُ أين تشاء. ألست أنت، يا أخ، من يفتح فينا بحر الكلام على مصراعيه؟ ألست أنت بحر الشعر، وشعر البحر؟
ـ أنا بريء. أنا أدافع عن حقّي وعن ذاكرة أبي، وأحارب الصحراء.
ـ وأنا أيضاً... ولكن البحر، يا أخي، هو البحر.

وإليه سنمضي بعد قليل، في سفن نوح الحديثة، في أزرق يسفر عن أبيض لا نهائي، ولا يُسفر عن ساحل. إلى أين.. إلى أين يأخذنا

البحر في البحر؟. وهنا لم أمت. لم أمت بعد. سأنام. ما النوم؟ ما هذا الموتُ السحريّ المفروش بأسماء العنب؟! جسد ثقيل كالرصاص يرميه النوم في سحابة من قطن. جسد يتشرَّبُ النوم كما يتشرَّب النبات المهجور رائحة الندى. أدخل في النوم، رويداً رويداً على وقع أصوات بعيدة، أصوات قادمة من ماض مبعثر على تجعّد السرير والأيام. أقرعُ باب النوم من عضلات ترتخي وتتوتر. يفتح لي ذراعه. أستأذنه في الدخول فيأذن لي. أدخل. أشكره. أمدحه. أحمده. النوم يناديني وأنا أنادي النوم. النوم سواد يتفكك تدريجياً إلى رمادي وأبيض. النومُ أبيض، انفصالٌ وأبيض. استقلالٌ وأبيض. ناعم وقوي وأبيض. النوم صحوة التعب وأنينُه الأخيرُ. . وأبيض. للنوم أرض بيضاء وسماء بيضاء وبحر أبيض، وعضلات قوية، عضلات من زهر الياسمين. النوم سيِّد، أمير، ملك، ملاك، سلطان، وإله. أستسلم إليه كما يستسلم العاشق لمدائح المرأة الأولى. النوم جواد أبيض يطير على سحاب أبيض. النومُ سلام. النوم منام يخرجُ من منام:

ـ هل أنتَ حيّ؟

ـ في منطقة وُسْطى بين الحياة والموت.

ـ هل أنت حي؟

ـ كيف عرفت أني أضع الآن رأسي على ركبتيك وأنام؟

ـ لأنك أيقظتني الآن حين تحركت في بطني. هل أنت حيّ؟

ـ لا أعرف، لا أريد أن أعرف. ولكن هل يحدث كثيراً أن يوقظنا من المنام منامٌ آخر هو تفسير المنام؟

ـ هذا ما يحدث الآن. . هل أنت حي؟

ـ ما دمتُ أحلم، فأنا حيّ. لأن الموتى لا يحلمون.

ـ هل تحلم كثيرا؟

ـ حين أقترب من الموت . .

ـ هل أنت حيّ؟

ـ تقريباً، ولكن في الوقت مُتّسعاً للموت.

ـ لا تمت

ـ سأحاول

ـ هل أحببتني؟

ـ لا أعرف

ـ هل تحبني الآن؟

ـ لا.

ـ الرجل لا يفهم المرأة

ـ والمرأة لا تفهم الرجل . .

ـ لا أحد يفهم أحداً

ـ ولا أحد يفهم أحداً

ـ لا أحد يفهم . .

ـ لا أحد . .

ـ لا أحد . .

صمم الغلاف : الفنان نبيل قدوح